حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

المجلد السابع

٢٠١١-٢٠١٢

الجانب السياسي في حياة الفقيه أبي عمران الفاسي

د. خالد حسين محمود•

كلية الآداب – جامعة عين شمس

جمهورية مصر العربية

يعد الفقيه أبو عمران الفاسي من أبرز أعلام المالكية الذين تركوا أثراً كبيراً في تاريخ بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، حيث طبعت شخصيته الفقهية المجتمع المغربي بصورة حية، وجعلت منه حافظاً للمذهب المالكي وإماماً لأهل المغرب بدون منازع[١]، وأسهمت في إحداث تغييرات جذرية في انتماءات بلاد المغرب الفكرية والمذهبية، ونصبت منه زعيماً شعبياً تبنى مبادرة إصلاحية، تهدف إلى تصحيح الأوضاع الاجتماعية المنحرفة عن الجادة، وتسعى نحو تقويمها، مع إلزام الحكام بالأخذ بمقتضيات الإصلاح وإقامة الحكم على أساس الأحكام، والتي تُوجتْ بظهور الحركة المرابطية ومشروعها الديني–السياسي– العسكري الشامل، والذي مثل أبو عمران فيها دور العقل المدبر والصانع الأكثر نجاعة.

ورغم أهمية الموضوع، فان الباحثين[٢]عزفوا عن اقتحامه وسبر أغواره، فلم تخصص حتى الآن–فيما أعلم– دراسة مستفيضة تسعى نحو بلورة الشخصية السياسية للفقيه أبي عمران،

• أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

(١) كانت شخصية أبي عمران الفقهية والعلمية أكثر جذباً لأنظار الباحثين فتعددت حولها دراساتهم، منها على سبيل المثال، دراسة محمد الفاسي، "أبو عمران الفاسي والعلاقات العلمية بين المغرب وتونس"، مقال منشور بمجلة المناهل، ع١٧، ١٩٨٠م، ص ١٥١–١٥٧. ومع الاحتفال بالذكرى الألفية لوفاة أبى عمران عُقدت بخصوصه ندوة بمركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء بالرباط؛ أفرزت عدداً من الدراسات الشرعية، تم نشرها في كتاب بعنوان:أبُو عِمرَان الفاسي (ت٤٣٠هـ) حافظ المذهب المالكي، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م. وبالموازاة، أفردت مجلة قطر الندى –التي تصدر عن مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث بالقاهرة.عدداً خاصاً (العدد الرابع، السنة الأولى، رجب ١٤٣٠هـ)،أنجز فيه ثلة من الدارسين أبحاثاً حول شيوخ أبى عمران وتلامذته، وأجوبته الفقهية، واختياراته العلمية.

(٢) يُستثنى من ذلك دراسة عبد القادر زمامة، "أبو عمران الغفجومي أول مفكر في تأسيس دولة المرابطين"، مقال منشور بمجلة البينة، ع٣، ١٩٦٢هـ، ص٦٥–٧٢، ودراسة عبدالله كنون، "أبو عمران الفاسي"، مقال منشور بمجلة الثقافة المغربية، ع١، ١٩٧٠، ص ٤٩–٦٠.إلا أن الدراستين غلبت عليهما النزعة المناقبية التمجيدية، فبدتا وكأنهما صياغة لغوية حديثة لنصوص قديمة جد محدودة.

والكشف عن عوامل تشكيلها، ورصد مظاهرها عبر مسيرتها التاريخية، ومعالجتها في إطارها الشمولي.

وهو أمر يُعزى دون شك إلى شح المادة التاريخية القادرة على بناء موضوع متكامل في هذا الجانب؛ نتيجة فقدان المؤلفات العلمية لهذا الفقيه، فضلاً عن تهميش شخصيته السياسية ودوره التاريخي في المصادر التي نجت من التلف والضياع، ناهيك عن تضارب[1] الروايات الشحيحة التي وردت في تلك المصادر بهذا الخصوص لتزيد الأمر تعقيداً .

---

[1] انظر مثلاً كيف تضاربت الروايات حول نسب أبي عمران، فقيل أنه من زناتة (عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج٢، ص٢٨٠، الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق، شعيب الارناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩ ١٤١٣هـ ، ج١٧، ص٥٤٥)، وقيل من صنهاجة (البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٢م، ج١، ص٢٢١)، وقيل من هوارة(ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط.دار صادر، بيروت، د.ت، ج٤، ص٢٠٧).واختلفت الروايات حول صحة اسم زعيم قبيلة جدالة الذي التقاه أبو عمران في لقاءٍ مهد لقيام دولة المرابطين، فذهب بعضهم إلى أن اسمه " الجوهر"(عياض، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٣٣، ونسبه إلى جزولة، كما اغفل ذكر أبي عمران فجعل لقائه بوجاج بن زللو مباشرة، واخذ ابن الأثير بهذه الرواية (الكامل في التاريخ، تحقيق عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، ج٨، ص ٣٢٨- ٣٢٩)، في حين ذهب غالبية المؤرخين إلى أن اسمه يحيي بن إبراهيم الجدالي(انظر على سبيل المثال، البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ص١٦٤، ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٤، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٣ ١٩٨٢م، ص ٧، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط. دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط ١٩٧٢، ص ١٢٢).كما تباينت الآراء حول تاريخ هذا اللقاء، بين سنوات، ٤٢٧هـ(ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٢٢) و٤٢٩هـ(مؤلف مجهول، جامع تواريخ فاس، مطبعة برنارد ويزى، بالرم ١٨٧٨، ص ٢٨)، و٤٤٠هـ(مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء ١٩٧٩، ص ١٩، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون "المعرف بالعبر"، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤، ج٦، ص ١٨٢)، ٣٤٤هـ(ابن عذارى، المصدر السابق، ج٣، تحقيق ج.س كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة ، بيروت، د.ت، ص ٢٤٢)، و٤٤٨هـ(ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص ٣٢٨) وجعلها ابن الخطيب في"عشر الأربعين وأربعماية"(الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق يوسف على طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ٢٠٠٣، ج٤، ص ٣٠٢).كما تضاربت أيضا حول سنة وفاة أبي عمران، فقيل "بعد العشرين وأربعمائة"(الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الابياري، ط٣ ، نشر دار الكتاب المصري بالقاهرة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص ٥٣٨) وقيل٤٢٩هـ (ابن بشكوال،

فقد نسبت المصادر إلى أبى عمران عدداً من المؤلفات[١]، في الحديث[٢]، والفقه[٣]، والنوازل[٤]، والفهرسة[٥]، إلا أنها باتت في عداد المفقود، مما فوت فرصة مطالعتها، واصطياد

الصلة، تحقيق إبراهيم الابياري، ط١ ، دار الكتاب المصري–دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩م، ص ٨٨٢؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، نشر مؤسسة ناصر للثقافة ، ط٢، بيروت ، ١٩٨٠م، ص ٤٣٥)، وقيل ٤٣٠هـ (عياض، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٨٣؛ الذهبي، المصدر السابق، ج١٧، ص ٥٤٦)، وقيل ٤٥٧هـ (أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ج٥، ص ٧٧).

[١] لا تتناسب مؤلفات أبي عمران –التي صح نسبتها إليه –مع موسوعيته المعرفية؛ وغزارة علمه؛ وعلو تحصيله؛ وتعدد روافده ومشاربه، ربما لانشغاله الكبير بالدرس والإقراء والإفتاء في الجلسات العامة والخاصة، حتى أنه كان يلقب بالفقيه المدرس(ابن عذارى، المصدر السابق، ج٤، ص ٧)،فضلاً عن رحلاته المتتابعة دون انقطاع وحتى وفاته، والتي لم تتح له فرصة الاستقرار الذهني للكتابة والتأليف(انظر ما ذكره الدباغ عن أستاذه القابسى الذي عدد له مؤلفات عدة ثم قال"وقد أشغلته العبادة عن التأليف فان أوقاته كلها كانت عامرة بالخير"، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٦٨م، ج٣، ص ١٣٦)، أو أنه آثر على التقوقع في دائرة التنظير، الانشغال بميدان العمل، وتربية جيل قادر على القيام بمهمة الإصلاح، على غرار ما فعله إخوان الصفا، وهو ما أثمر قيام دولة المرابطين.

[٢] حيث خرج من عوالي حديثه نحو مائة ورقة جمعها في كتاب سماه "الأمالي".انظر، الحميدي، المصدر السابق، ص ٤٨٠، ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق مأمون الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٤٢٢.

[٣] له كتاب"التعاليق على المدونة"، تعرض فيه لترجمة بعض رجال زمانه ومواقفهم التاريخية، اعتمده القاضي عياض ضمن مصادره في ترتيب المدارك(عياض، المصدر السابق، ج١، ص ١٦، ج٢، ص ٤٠، ٤٧، ١٣٩ ، ١٧٣ ، ١٨٥)، انظر عنه، البرزلى، المصدر السابق، ج١، ص ١٩٩، ابن فرحون، المصدر السابق، ص ٣٤٥، الرعيني، مواهب الجليل لشرح مختصر الخليل، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ج٢، ص ٥٢٦، ٥٤٤؛ ج٨، ص ٦٢٤،مما يعنى أن الكتاب كان موجوداً متداولاً خلال القرن العاشر الهجري.وله كتاب آخر بعنوان" الدلائل والأضداد".ابن فرحون، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٠١هـ، ج٢، ص٢٣، الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب، تحقيق مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ط.دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م، ج١٠، ص ١٤٤.

[٤] ينسب إليه كتاب في الفتاوى عرف بـ"مسائل أبى عمران"، ابن فرحون، التبصرة، ج١، ص ١٥٥، الرعينى، المصدر السابق، ج١، ص ١٧٤، ج٧، ص ٣٣٠.

[٥] له كتاب "الفهرست" أو "برنامج الأساتذة"، افرده للحديث عن الشيوخ الذين تلقى العلم على أيديهم.عياض، الغنية(فهرست شيوخ القاضي عياض)، تحقيق ماهر زهير جراد، دار الغرب الإسلامي، ط١ ٢٠٠٢، ص٢٢، عبد

إشارات قد تَمكن من معرفة شخصية الفقيه؛ وأطوار حياته وتكوينه؛ وقراءة فكره السياسي؛ ورصد توجهاته الإصلاحية.فلا شك أن معاينة ما كتبه الفقيه في التراجم والفهارس والمناقب؛ كانت من الممكن أن تسلط الضوء على نواحي شخصيته وذاتيته ونفسيته، إذ المعتاد في مثل هذه الكتب أن يسجل المؤلف قطوفاً من أخباره الخاصة وسيرته الذاتية، وهو يترجم لأشخاص عاصرهم واحتك بهم، وهو ما ينسحب أيضاً على كتاباته في العلوم الشرعية، فكثيراً ما يبدو" التاريخ السياسي كامناً خلف تاريخ العقيدة والفقه والأصول"[1]وغيرها من العلوم الشرعية والمعارف الدينية، والتي حاز أبو عمران في كثير منها قصب السبق،كما سيتضح لاحقاً .

أشارت المصادر[2]إلى كثرة تلامذة أبي عمران؛ ممن أبهرتهم شخصيته؛ فكانوا اشد التصاقاً بشخصه؛ وأرغب في التشبه به وتقليد هيئته؛ وأحرص على تدوين كل كلمة تُسمع منه، إلا أن أحداً منهم لم يخص أستاذه بكتاب أو مُؤلَّف يتناول سيرته الذاتية ودوره التاريخي؛ مثلما حدث مع غيره من المشايخ[3]، إذا ما استثنينا تلميذه القرطبي عبدالله بن رشيق(ت٤١٩هـ) الذي قدم القيروان واستوطنها فترة من الزمن، وأُعجب بالشيخ أبى عمران وبمواقفه المشهودة، فلزمه فترة طويلة، واختصه بقصائد مطولة من شعره[4].كما نسب ابن الآبار[1]إلى أبى القاسم القنطرى

الحي الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، ط٢ ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٢، ج١، ص١٥٩؛ عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخي المغرب، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٢٠٨؛ عبد العزيز بن عبد الله، "الفهرسة والكناشة في نشاط المغرب الفكري"، مجلة التاريخ العربي، العدد ٧، ١٩٩٨م، ص ١٢٣. ويعد هذا الكتاب أقدم فهرسة مغربية ورد ذكرها في المصادر .عبدالله المرابط الترغي، فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، نشر كلية الآداب بجامعة عبد المالك السعدي بتطوان، ط١، ٢٠٠٠م، ص ١٠٨.

[1] عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام، العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م، ص٩٢.

[2] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٠٣ ، ٢٨١؛ الذهبي، المصدر السابق، ج١٧، ص ٥٤٦.

[3] على سبيل المثال ألف أبو القاسم اللبيدي (ت٤٤٠هـ)كتاباً في سيرة أستاذه أبي إسحاق الجنبياني (عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٨٣، الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص ١٧٥، وقد قام روجيه إدريس بنشره عام ١٩٥٩)، كما افرد أبو بكر بن عبدالله المالكى (ت٤٤٤هـ) أستاذه أبا الحسن القابسى بكتاب، تناول فيه مناقبه، وفضائله، وسيرته الذاتية (الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص٤٣، ١٧٣).

[4] ابن رشيق القيرواني، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، جمع وتحقيق محمد العروسى المطوى وبشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١، ، ص١٩١؛ ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام

الأندلسي كتاباً افرده لنسب أبى عمران وسيرته، إلا أن تلك المؤلفات باتت هي الأخرى في عداد المفقود.

كذلك، لم يحظ الدور التاريخي للفقيه أبى عمران بما يليق به من جانب مؤلفي المصادر التاريخية التي وصلت إلينا ونجت من الضياع، حيث لم يرد بها سوى معلومات غاية في المحدودية والاختزال– بشكل يبعث على الدهشة– رغم الدور المحوري الذي قام به كزعيم شعبي ومؤسس لدولة كبيرة كدولة المرابطين.

فعلى الرغم من أن البكري[٢]كتب كتابه" المغرب" عام ٤٦٠هـ– أي بعد موت أبي عمران بنحو ثلاثين سنة– ورغم اعترافه بدور أبى عمران وفضله في قيام دولة المرابطين؛ إلا انه لم يشر إلى مواقفه السياسية في مدينة فاس، فضلاً عن اختزاله لدوره في قيام دولة المرابطين، في الوقت الذي أسهب فيه الحديث عن دور عبد الله بن يسن.

لم يشفع الدور الكبير الذي لعبه الفقيه أبو عمران في الإلحاح على النزعة البربرية واستقلالية المغرب وتأسيس أول دولة بربرية مستقلة عن المشرق، عند مؤلف كتاب مفاخر البربر[٣]–والذي سجله للإشادة والتمجيد والافتخار بالبربر–حيث ضرب عنه الذكر صفحاً ، وعرج على ترجمة تلميذه الفقيه وجاج بن زللو اللمطى، أكد خلالها –وبشكل عرضي –أن قيام دولة المرابطين كان "بأمر أبى عمران في خبر طويل".ولا شك أن الخبر الطويل الذي اعرض الكاتب عن تفاصيله –وربما استقاه من مصادر أولية مفقودة، ضنت بذكره المصادر الأخرى – قد فوت الفرصة للتعرف على تلك الخطة المحكمة، والموضوعة سلفاً بين أطراف عدة، وكانت تهدف إلى قيام دولة سنية مالكية توحد ربوع بلاد المغرب.

أما مؤرخ مدينة فاس الشهير ابن أبى زرع [٤] – والذي غلبت على كتابه " القرطاس" ظاهرة التفصيل والإسهاب[١]–فقد همش بشكل لافت الدور السياسي الذي لعبه أبو عمران في

الهراس، دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٩٩٥م، ج٢، ص٢٣٩؛ الصفدى، الوافى بالوفيات، تحقيق احمد الارناؤوط وتركى مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ج١٧، ص ٨٧.

[١] ابن الأبار، المصدر السابق ج٢، ص ١٥ .

[٢] المصدر السابق، ص١٦٤– ١٧٤.

[٣] مجهول، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط١ ٢٠٠٥م، ص ١٦٥.

[٤] المصدر السابق، ص ١٢٢.

مدينة فاس قبل خروجه منها، وأورد خبر رحيل الفقيه من فاس إلى القيروان دون أدنى إشارة إلى أسباب ذلك[٢] ، واكتفى بإشارة مختزلة عنه في فصل كبير أفرده للحديث عن دولة الأمير الجدالى يحيي بن إبراهيم.تتعلق باللقاء الذي تم بينهما في القيروان، ومهد لقيام دولة المرابطين.

وفي حديثه عن دور بعض الأعلام المغاربة في تدعيم المذهب الأشعري؛ ونشره ببلاد المغرب؛ والتصدي للمناوئين– والذي أسهم فيها أبو عمران بشكل لافت –؛ اختزل المؤرخ ابن عساكر[٣] بصورة بينة الحديث عنهم، معللاً ذلك بقوله " ذكر الكلاعى جماعة من أفاضل هذا العلم بالمغرب تركت ذكرهم تجنباً للإطالة، خوفاً من السآمة والملالة"، وهو ما لقي استنكاراً من قبل المؤرخ تقي الدين السبكى[٤]، الذي اخذ على ابن عساكر هذا الأمر فقال، "لقد أهمل على سعة حفظه من الأعيان كثيراً ، وترك ذكر أقوام كان ينبغي حيث ذكر هؤلاء أن يشمر عن ساعد الاجتهاد في ذكرهم تشميرا"

أما عن كتب الطبقات التي ترجمت لأبى عمران فلم تسهم في إيضاح شخصيته التاريخية، بل زادت الصورة تعقيداً ، ففضلاً عن اختزال ترجمته فيها، وتطابق المعلومات الواردة عنه في غالبها -بصورة تدفع إلى القول بان نقلاً حرفياً قد استحوذ على أقلام كاتبيها–فإنها كانت تورد الأخبار القليلة والأحداث الضئيلة، التي يمكن أن يعتمدها الباحث، بطريقة متداخلة ومتضاربة أحياناً ، وبشكل يصعب معه استخلاص الحقائق؛ ووضع الإطار العام؛ وتتبع التسلسل التاريخي؛ ورصد الخط السياسي لحياة فقيه وزعيم شعبي وصفته المصادر بأنه"من أكابر أهل القيروان"[٥] و"من كبار العلماء"[٦] و"من اعلم الناس وأحفظهم"[٧]، ممن "حاز الذكر ورئاسة

---

[١] ابن أبى زرع، المصدر السابق ، ص ١٤.

[٢] ابن أبي زرع، المصدر نفسه، ص ١٢٢.

[٣] تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي حسن الأشعري، مطبعة التوفيق، دمشق، ١٣٤٧هـ، ص١٢٢.

[٤] طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمد محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.، ج٣، ص ٣٧٢.

[٥] الشاطبى، فتاوى الإمام الشاطبى، حققها وقدم لها محمد أبو الاجفان، الوردية، ط٢، تونس، ١٩٨٥، ص ٢١٠.

[٦] أبو المحاسن، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٠.

[٧] الذهبى، المصدر السابق، ج١٧، ص ٥٤٦؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ص٨٨٢؛ ابن فرحون، الديباج، ص ٤٢٢.

الدين في وقته"[١]، مما جعله شديد التأثير على العامة ، حتى أنهم كانوا طوع أمره[٢]، يعتنون بقوله ويفزعون إليه في الحوادث[٣]، وهو ما أكده يوم جنازته؛ حيث حملت العامة نعشه ورفضت تسليمه للأمير الزيري مما حدا بالأخير إلى قطع أيدي بعضهم، كما أمر بتفريق الجموع الغفيرة التي اعتكفت على قبره ومنع الزيارة إليه[٤].

صفوة القول، إن المادة العلمية المتعلقة بشخصية الفقيه أبي عمران السياسية ودوره التاريخي كانت شديدة الندرة في المصادر، بشكل لا يسمح بالإلمام بكافة جزئيات الموضوع؛ وسد جميع ثغراته، وملأ فجواته، ويدفع نحو الاكتفاء برسم الخطوط العريضة والملامح المبدئية لحياة الرجل السياسية، من خلال جمع الروايات المصدرية والتأليف بينها، وتدعيمها بالإشارات الشاردة التي وردت في المصادر الاستثنائية[٥]، وتتبع الأحداث ووضعها في إطارها التاريخي، فضلاً عن رصد فتاوى أبي عمران وأقواله الفقهية، التي احتفظت بها كتب النوازل والمسائل، والإمساك بأبعادها السياسية، ناهيك عن دراسة الموضوع بشكل شمولي؛ عبر ربطه بظروف العالم الإسلامي شرقاً وغرباً ، وطرح بعض الفرضيات والتكهنات ومحاولة تدعيمها بقرائن قد تكون مقبولة.

ويمكن معالجة الموضوع من خلال محورين أساسيين، يطمح **الأول** منه إلى الوقوف على العوامل التي شكلت الشخصية السياسية لأبي عمران الفاسي؛ ودفعته نحو تبني دور إصلاحي وممارسة مواقف سياسية، بينما يهدف **الثاني** نحو رصد مظاهر الدور السياسي للفقيه الفاسي، حسب السياق التاريخي؛ بدءً من طور المواجهة المعلنة لبعض القوى السياسية في مسقط رأسه؛ والتي أثبتت فشلها، واضطرته إلى الخروج منها نحو القيروان، ليرسم فيها اطر دعوة إصلاحية ذات نفس طويل– في إطار مشاركة عناصر أخرى مشرقية–آتت ثمارها في نهاية المطاف بوضع الأسس التي قامت عليها دولة المرابطين فيما بعد.

---

[١] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٧٩.

[٢] الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٨.

[٣] عياض ، المدارك، ج٢، ص ٢٨٠، ٢٨٢.

[٤] الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص١٦٩.

[٥] وهي التي لا تعالج الظاهرة السياسية بالأصالة، وإنما ترد فيها المادة السياسية بصورة عرضية، وفي سياق آخر كجزء من ظاهرة عامة، سواء كانت فقهية أم تاريخية أم فلسفية أم كلامية أم لغوية.انظر بهذا الخصوص، نصر عارف، في مصادر التراث السياسي الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٤م، ص ٩٩.

المحور الأول، الاضطرار السياسي للفقيه أبى عمران الفاسي،

إن الباحث عن الدوافع الكامنة وراء تبنى الفقيه أبى عمران الفاسي لمواقف سياسية مرتبطة بفكر سياسي عام؛ يدرك أنها تتمثل في عناصر ثلاثة، عنصر يتعلق بموسوعيته العلمية؛ وشموليته المعرفية؛ وتضلعه على نحو خاص بالفقه وعلم الأصول؛ واعتناقه للمذهب الأشعري، وعنصر ثانٍ يختص بتأثره بمشايخه الذين تتلمذ على أيديهم؛ ممن كان لهم اهتمام سياسي ملحوظ، وعنصر ثالث يختص بظروف عصره ؛ التي كانت له بمثابة منبه سياسي.

من المتعارف عليه عند مفكري الاجتماع السياسي أن" كل طرق المعرفة في الإسلام تؤدى إلى السياسة"[١]، وأن ثمة تداخل مشهود في الإسلام بين "المعرفي" و"السياسي"؛ لان كلاهما ينطلقان من كتاب يعتبر الدليل الأول والأصل المطلق الذي تلحق به كل الأحكام؛ والمرجع المعياري الأول لما ينبغي أن يضبط به مجتمع الناس[٢].

تصف المصادر الفقيه أبا عمران بأنه كان صاحب همة عالية متجهة نحو طلب العلم والاغتراف من شتى مناهله؛ مما اكسبه شخصية علمية فذة؛ اتسمت بالموسوعية وعلو الشأن في مختلف أنواع المعارف، حتى انه اُعتبر عند عصرييه "مكثرا"[٣]"إماماً في كل علم"[٤]"عالماً بفنون بفنون العلم"[٥]، ووصفوه بـ"العلامة"[٦]، و"الإمام الكبير"[١]، ولا غرو، فقد كان الرجل "إماماً في

---

[١] عبد المجيد الصغير، الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام، قراءة في نشأة علم الأصول ومقاصد الشريعة، دار المنتخب العربي، ط١ ١٩٩٤م، ص ٩.

[٢] على أوملیل، "السلطة السياسية والسلطة العلمية، الغزالي، ابن تومرت، ابن رشد"، ضمن ندوة، أبو حامد الغزالي، دراسات في فكره وعصره وتأثيره، كلية الآداب، الرباط، ١٩٨٨، ص ١٢. وفى هذا الصدد يقول الغزالي" أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا.. وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين.. وأشرف هذه الصناعات أصولها، وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها ما لا يستدعيه سائر الصناعات ..لذلك يستخدم لا محالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناع والسياسة في استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم".انظر كتابه، إحياء علوم الدين، نشر مكتبة ومطبعة كرياطه فوترا ، سماراغ، اندونيسيا، د.ت، ج١، ص ١٤.

[٣] الحميدي، المصدر السابق، ص ٥٣٨.

[٤] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٨١.

[٥] الدباغ، المعالم، ج٣، ص ١٥٩– ١٦٠.

[٦] الذهبي، المعين في طبقات المحدثين، تحقيق همام عبد الرحيم سعيد، دار الفرقان، عمان، الأردن، ١٤٠٤ هـ، ج١، ص ٣٤؛ ابن الأحمر، المصدر السابق، ص ٢٧.

القراءات"[٢]"يقرئ القرآن بالسبعة ويجودها"[٣]، فوصفته المصادر بـ"المقرىء"[٤].وكان"بصيراً في الحديث"[٥]، "ومعرفة معانيه"[٦]، على دراية تامة بعلم "الرجال" [٧]"المعدلين منهم والمجرحين"[٨].كما كان"نافذاً في علم الأصول"[٩]"رأساً في الفقه"[١٠]، "جمع حفظ المذهب المالكي"[١١]، فصار مضرباً للمثل في سعة العلم والمعرفة بالأصول والفروع حتى انه يقال، "افقه من أبى عمران"[١٢]كذلك كان راسخاً في اللغة"نحوياً ..بارعاً "[١٣].ولم تقتصر موسوعيته تلك على العلوم الشرعية فحسب؛ وإنما كان صاحب اهتمام ببعض العلوم التجريبية لا سيما الكيمياء والفلك[١٤]، وهو ما دفع تلميذه حاتم الطرابلسي إلى أن يقول، " كان أبو عمران من أعلم الناس..ولم الق أحدا أوسع منه علماً ولا أكثر رواية"[١٥]، ولنا أن نقدر موسوعيته المعرفية من

---

[١] الذهبى، السير، ج١٧، ص ٥٤٥.

[٢] الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط٢ ١٩٤٨م، ج٣، ص ١٧٥.

[٣] ابن بشكوال، المصدر السابق، ص ٨٨٢.

[٤] أبو المحاسن، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٠.

[٥] الذهبي، العبر، ج٣، ص١٧٥، ثم تابع مروياته عند ابن عطية المحاربي، الفهرس، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢، ص ٦٥، ٧٥.

[٦] ابن فرحون، الديباج، ص ٤٢٢.

[٧] الذهبى، السير، ج١٧، ص ٥٤٦.

[٨] ابن بشكوال، المصدر السابق، ص ٨٨٢.

[٩] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٨١.

[١٠] الذهبي، العبر، ج٣، ص ١٧٥.

[١١] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٨١.

[١٢] الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص٢٠٣؛ عياض، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٤١. والذي روى أيضا أن احدهم استنكر على السيورى قوله عن المازرى " أحفظ من رأيت، فقيل له ، تقول هذا وقد رأيت ....أبا عمران الفاسي".

[١٣] أبو المحاسن، المصدر السابق، ج٥، ص ٧٧.

[١٤] الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص١٦٣؛ ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي سامي النشار، نشر وزارة الإعلام ، العراق، د.ت.، ص ١٥١.

[١٥]عياض، المدارك، ج٢، ص٢٨١.

خلال تلك الرواية التي تذكر أن قاضى مدينة دانية ابن أبى ريال- "وكان فقيها نظاراً"[١] -وجه إلى أبى عمران مائة سؤال في شتى فنون العلم والمعرفة، أجاب عنها الفقيه ببراعة تامة، أثارت إعجاب الفقيه الأندلسي، واستفزت قريحته الشعرية [٢].

وإن ضرب أبو عمران بسهم وافر في شتى المعارف؛ إلا أن المسالة الفقهية احتلت المكانة البارزة في سلم اهتماماته العلمية والتأليفية؛ فكانت بمثابة دافع قوي له نحو الفضاء السياسي، وهو ما أكدت عليه المصادر، فقد كان يعرف في زمانه بـ"أبي عمران الفقيه"[٣]الذي كانثافذاً في علم الأصول مقطوعاً بفضله وإمامته"[٤]، قد علا كعبه في المذهب المالكي فصار "شيخ المذهب"[٥]و"إمام"[٦]"المالكية في زمانه"[٧]و"عالم المغرب"[٨]و"فقيه"[٩]و"شيخ القيروان"[١٠]"المقدم في وقته"[١١]و"زمانه"[١٢] قد "حاز الذكر ورئاسة الدين"[١٣]، و"طارت فتاواه في في المشرق والمغرب"[١٤]و"انتهت إليه رياسة العلم بالقيروان"[١]، حتى أصبح"شيخ فقهائها"[٢]، لذا

---

[١] ابن عبد الملك، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص ٩٤.

[٢] عياض، المدارك، ج٢، ص٣١٧؛ ابن عبد الملك، المصدر السابق، س١، ص ٩٤؛ ابن الأبار، المصدر السابق، ج١، ص ٢٥.

[٣] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٧.

[٤] عياض، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٨١.

[٥] ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٢٤٣ .

[٦] عياض، مدارك، ج٢، ص ٢٨٠.

[٧] أبو المحاسن ، المصدر السابق، ج٥، ص ٧٧.

[٨] الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج٣، ص ١٩٨.

[٩] الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري بالقاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١،١٤١٠هـ/١٩٨٩م ، ص ٦٠٦.

[١٠] الذهبى، طبقات المحدثين، ص ٣٤.

[١١] الحميدي، المصدر السابق، ص ٤٤٣.

[١٢] أبو المحاسن ، المصدر السابق، ج٥، ص ٧٧.

[١٣] عياض ، المدارك، ج٢، ص٢٧٩.

[١٤] الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص ١٥٩.

كان قضاة الأمصار يستفتونه في كثير من المسائل التي يتعثر عليهم الإجابة عنها[٣]، وقد تضمنت فتاواه شواهد قاطعة على تضلعه في الفقه والأصول[٤]، حتى اعتبرها شيوخ الفتوى في عصره وبعده مصدراً للتفريع والبناء والتنزيل[٥].

امتلك أبو عمران ملكة فقهية نقدية مشهودة امتازت بالحيادية والموضوعية، فقد اطلع على كتب نظيره اللدود الإمام ابن عبد البر الأندلسي (ت ٤٦٣هـ)، وأثنى عليها، لا سيما كتابه "التقصي لأحاديث الموطأ"، الذي أكد انه أفضل من كتاب الملخص لأستاذه القابسي[٦].كما دفعه فضوله المعرفي إلى قراءة مؤلفات الفقيه الأندلسي محمد بن عبدالله الشراط (ت٣٤١هـ)، واستنتج انه اقتبس جل ما كتبه فيها عن الفقيه الحنفي ابن قادم القروى، مما دعاه إلى الخوض فيه واتهامه بالسرقة والانتحال[٧]، مما يشي باطلاعه على المذهب الحنفي.

تسمح لنا هذه المعطيات إلى القول بانفتاح العقلية الفقهية لأبى عمران، والتي لا شك كانت قادرة على رصد تلك العلاقة الجدلية التي تربط الفقه بالسياسة، كما كان على وعى بالتجربة السياسية الإسلامية التي كشفت عن علاقة الفقيه بالسلطان، والتي ستصبح خلفية سياسية مهمة سينطلق منها الفقيه المالكي في تعاطيه مع التجربة السياسية، فإذا كانت السياسة عند مفكري القرون الوسطى هي "ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه اقرب إلى

---

(١) الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.، ص ٢١٧؛ أبو المحاسن، المصدر السابق، ج٥، ص٣٠.

(٢) ابن فرحون، الديباج، ص١٠١.

(٣) عياض، المدارك، ج٢، ص٣١٨؛ البرزلي، المصدر السابق، ج١، ص ٣٢٩؛ ج٢، ص ٢٣٩؛ ج٥، ص ٣٤٤-٣٤٦؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج٦، ص ٢٣٨؛ ج٩، ص ٣٨٦-٣٨٧.

(٤) انظر طرفا منها عند، البرزلي، المصدر السابق، ج١، ص ١٧٥، ١٩١؛ ج٣، ص ١٦٧-١٦٨، ٣١١-٣١٢، ٣٨٢؛ ج٥، ص ٥٤-٥٥، ٩٩، ١٠٣؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج٤، ص ٤٢٢؛ ج٧، ص ٢٩١، ٣٠٠.

(٥) منهم على سبيل المثال الأئمة الداودي والسيوري واللخمي والباجي وابن رشد وابن الحاج.الونشريسي، المصدر السابق، ج١، ص ٢٤٨؛ ج٣، ص ٤٠٩، ٦٤١؛ ج٤، ص ٥١، ٢٨٨، ٣٣٠؛ ج٥، ص ١٢٧، ١٩٩؛ ج٩، ص ٤٥٢، ٥٤٥، ٥٤٨؛ ج١٠، ص ١٠٣.

(٦) ابن عطية، المصدر السابق، ص ٨٣.

(٧) عياض ، المدارك، ج٢، ص ١٢٠.

الصلاح، وأبعد عن الفساد"[١]، أو أنها "استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجى في الدنيا والآخرة"[٢] ، فإن نظر الفقيه في الأحوال التعبدية كلها "مرتبط بالدنيا التي بها صلاح طريق الآخرة ... لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة"[٣] ، فالفقيه– بطبيعة فنه– أوثق ما يكون صلة بعالم الدنيا، ونظره يتعلق بسلوك الناس، وما ينشأ فيهم من نزاع، وما يقوم بينهم من خصومات نتيجة الاختلاف في المصالح، وبالجملة فإن الفقيه هو" العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات" ، مثلما كان "حاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة"[٤] وعليه، استنتج أهل الفكر أن "الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم في الدنيا"[٥]، فالسلطان يتخذ من الفقيه مشيراً في قضايا تتعلق بالممارسة السياسية الفعلية، كما يلجا إليه ليجد عنده المسوغ والتبرير الشرعيين لقراراته وأفعاله، وهو ما اصطلح على تسميته بفن التدبير الذي يجمع السلطان بالفقيه ويحدد العلاقة بينهما[٦]، إذ إذ أن"للدين سلطانا، ما اعتزت مملكة إليه إلا صالت، ولا تحققت بشعاره إلا طالت"[٧].وتردد على الألسنة عصرئذ أن "الملك والدين توأمان فالدين أصل والسلطان حارس وما لا أصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع "[٨].

---

[١] ابن قيم الجوزية، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، نشره، بهيج غزاوى، بيروت، دار إحياء العلوم، د.ت.، ص ١٩–٢٠.

[٢] التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧، ج٣، ص ١٧١.

[٣] الغزالي، المصدر السابق، ج١، ص ١٨–١٩.

[٤] الغزالي، المصدر السابق، ص ١٧.

[٥] نفسه.

[٦]محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج٣(طور الازدهار)، مؤسسة الانتشار العربي، القاهرة، ط١ ٢٠٠٠م، ص ٨٠.

[٧] الماوردي، قوانين الوزارة وسياسة الملك، تحقيق رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٢٢.

[٨] الغزالي ، المصدر السابق، ج١، ص١٨.

لم تكن تلك الرؤية لتغيب عن ذهنية فقهاء المالكية المناضلة[١] بالمغرب –ومنذ فترة مبكرة– فراحوا يهتمون بكثير من الجوانب الفكرية خارج نطاق الفقه، وشاركوا في الحياة السياسية، وجعلوا من أنفسهم حراساً على مصالح الرعية، يتوسطون لهم عند الحكام لرفع الظلم والوقوف أمام الجور، ونددوا في كثير من الأحيان بالحكام الذين لم ينصاعوا لمطالبهم، مما عرض الكثير منهم إلى ألوان من العقاب والاضطهاد[٢]، ولعل في تصريح احد كبار مفكري الإسلام[٣] في العصور الوسطى بان "الأمصار التي ظهر فيها مذهب أهل المدينة يكون فيها الحكم بالعدل ما ليس في غيرها، من جعل صاحب الحرب متبعا لصاحب الكتاب" ما يؤكد على الجهود السياسية التي بذلها فقهاء المالكية، ويكشف كذلك عن سعى أهل السلطة نحو استقطابهم، مثلما فعل الفاطميون من محاولة اجتذاب المالكية إلى صفهم شان الأحناف[٤]، إلا أنهم فشلوا؛ حيث عمل فقهاء المالكية على مناوئة الفاطميين؛ وتأليب الرعية ضدهم؛ وبلغت المواجهة معهم حد الثورة المسلحة عبر المشاركة في ثورة أبى يزيد النكارى[٥].مما تسبب في عزل السلطة الفاطمية في محيطها[٦].ولا شك أن تلك الخلفية كانت حاضرة في مخيلة الفقيه أبي عمران ومؤثرة في شخصيتة السياسية ، لا سيما وأنه قد اتخذ من موقفه الفقهي منطلقاً لممارسة بعض التجارب الإصلاحية وتبني نوعاً من المواقف السياسية.

---

[١] أطلق لفظ" المالكية المناضلة" على فقهاء المالكية الذين اخذوا على عاتقهم مهمة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوقوف أمام الحكومات الجائرة.

Mones, Hussain, "Le role des hommes de religion dans l'histoire de l'Espagne musulmane jusqu'à la fin du califat." *Studia Islamica*, 20 (1964), p. 47.

[٢] انظر تفصيلاً لذلك عند، محمود إسماعيل، "المالكية والشيعة بأفريقيا إبان قيام الدولة الفاطمية."، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، مج ٢٣، ع ١، ص ٧٣ – ١٠٥ ؛

Dris (H) ، «L'aube du Malikisme Ifriqiyen», *Studia Islamica*, 33 (1971),pp.19-40.

[٣] ابن تيمية، الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الرباط، مكتبة المعارف، (د.ت)، ج٢٠، ص ٣٩٣.

[٤] الخشني، طبقات علماء افريقية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت، ص ٢٢٤–٢٢٦.

[٥] تابع هذه التفاصيل عند، ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، تحقيق ج.س كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص٢١٦–٢٢٠.

[٢]

H.Teerrass, "Un Tournant de l'histoire musulmane", *HespeÂris*, XXXIV, 1947, p.318.

لم يخضع اهتمام أبي عمران الفاسي بالمسالة السياسية تحت ضغط انتسابه للفقه فحسب، بل كان اشتغاله بعلم الكلام وعلم الأصول، من العوامل ذات التأثير الكبير في هذا الاهتمام.فمن المعلوم أن علم الكلام في تلك الفترة أضحى يمثل مجالا يلتقي فيه الدين بالسياسة[١]، ويحمل بين طياته أبعاداً سياسية وتاريخية واجتماعية، يمثل حضورها ثقلا في النص الكلامي[٢]، أما علم الأصول فقد بات يعكس منذ تأسيسه الهموم الأخلاقية والسياسية التي كانت موضوع تجربة رجل العلم مع دولة الخلافة[٣]،وأصبح مجالاً واسعاً لتقاطع السياسي والمعرفي في التجربتين السياسية والفقهية في الإسلام[٤].

لا تعوز القرائن الدالة على أن مولد الفكر الأشعري بالمشرق خلال القرن الهجري الرابع، وتطوره في القرن الهجري الموالي على الخصوص، جاء نتيجة جملة من التحولات السياسية والاجتماعية والفكرية، والتي كانت الأشعرية تعبيراً عنها، فأمام تعاظم المد الشيعى؛ والفكر الليبرالي الاعتزالي، وفرق الزندقة المتشبعة بالموروث العقلاني الفلسفي؛ والآراء والأفكار الغامضة لحضارة ما قبل الإسلام؛وعجز الخلافة العباسية عن مواجهتها لا سيما على فكرياً ؛ كان لابد من الاعتماد على المذهب الأشعري للارتفاع بعقيدة أهل السنة إلى مستوى التحديات، وهو ما نجح فيه مؤسس المذهب بشكل كبير، حيث تمكن أن يقدم للخلافة العباسية الصيغة الإيديولوجية المناسبة لها [٥].

كان الدافع السياسي أيضا وراء دخول المذهب الأشعري إلى بلاد المغرب، حيث حمل الفقيه التونسي إبراهيم بن عبيدالله الزبيدى المشهور بالقلانسى (ت٣٥٩هـ) الفكر الأشعري إلى افريقية–وهو ما حدا بالبرزلى[٦] أن يعتبره أحد " مشايخ الأشعرية"– بهدف معارضة المذهب الشيعي، وقد ألف في ذلك كتابا بعنوان"الإمامة والرد على الرافضة"، مما عرضه للاضطهاد والتعذيب والسجن من قبل

---

[١] أومليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦، ص ٢١٠.

[٢] سعيد بنسعيد العلوي، الخطاب الأشعري؛ مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي، دار المنتخب العربي، بيروت، ١٩٨١، ص٦٠.

[٣] عبد المجيد الصغير، المرجع السابق، ص ١٥٨.

[٤] عبد المجيد الصغير ، المرجع نفسه، ص ١١

[٥] محمود إسماعيل، سوسيولوجيا، ج٣، ص ٧٨– ٩٥.

[٦] المصدر السابق، ج١، ص ٣٨٧.

الفاطميين[١].وبالدافع ذاته أرسل الباقلانى عالمين أشعريين لنشر الفكر الأشعري بالمغرب، هما ابن حاتم حاتم الأزدي(ت٤٢٣هـ)، وأبو طاهر البغدادي(ت٤٤٨هـ)، واللذين قاما بدور سياسي لفائدة الخليفة العباسي، وسيراً على طريقة حذاق الدعاة السياسيين جعلا من الزهد والتقشف والتواضع وسائل لتحقيق أهدافهما[٢].ولا نستبعد كذلك أن التداخل الواضح بين الفكر الأشعري من جهة والمساندة للعباسيين والكراهية للشيعة من جهة أخرى، كان وراء نجاح هذا التيار الأشعري في القيروان في إعلان بنى زيرى القطيعة عن الفاطميين وإعلان التبعية لأعدائهم العباسيين، والذي لعب فيه الباقلانى –أستاذ أبى عمران الفاسي–دوراً مشهوداً باعتباره رأس الأشعرية، وشيخ المالكية بالمشرق، والذي كان خير حافز للمتعلمين المغاربة كي يشدوا إليه الرحال لطلب فقهه، فالتحم عندهم مذهبه الفقهي بمنهجه الأشعري[٣].

لا نعرف على وجه الدقة زمنية اعتناق أبى عمران للأشعرية[٤]، غير أن المرجح أن معرفته بها كانت في موطنه الأول مدينة فاس، التي عرفت الأشعرية[٥]على يد الفقيه المالكي الشهير دراس بن إسماعيل(ت ٣٥٧هـ)، الذي كان يجتمع عليه طلبة العلم لقراءة الفقه بمسجده

---

[١] عياض، المدارك، ج٢، ص ١٦٢.

[٢] ابن عساكر، تبيين كذب المفترى، ص ١٢١–١٢٢.

[٣] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٠٤ ، ٢٢٨، ٢٨٠ .

[٤] عن أشعرية أبي عمران الفاسي اعتماداً على النصوص المصدرية انظر يوسف احنانة، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الرباط، ٢٠٠٣م، ص ٦٢–٦٥.

[٥] رفع إلى الفقيه الأندلسي ابن رشد نازلة حول فرقة من الاشاعرة انتشرت بمدينة فاس كانت تتعرض للسبي والنهب من قبل أهل المدينة.انظر ابن رشد، الفتاوى، تحقيق المختار بن طاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧، ج٢، ص ٩٤٣– ٩٤٤. ثم تابع ، احمد حمدان العلمى، "دور فاس في التنظير لعقيدة المغاربة"، مقال منشور في كتاب فاس في تاريخ المغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ٢٠٠٩ ، ص١٦٧–٢٦٠.

بحي مصمودة[١]، والذي ادخل الأشعرية إلى المدينة وألف بها رسالة في الدفاع عن الأشعرية، وتولى ابن حزم الظاهري مهمة دحضها[٢].

تأثر أبو عمران بفكر أستاذه الأصيلي (ت٣٩٢هـ) في الأندلس والذي وصفته المصادر بأنه كان عالماً بالكلام والنظر منسوباً إلى معرفة الحديث ..والقيام بمذهب المالكية والجدل فيه على أصول البغداديين.. متكلم على الأصول وترك التقليد..ويحض أصحابه عليه"[٣]والذي ربما كان له دور في توجيه تلميذه نحو بغداد، التي أقام بها عدة سنوات[٤].

ولما انتقل أبو عمران إلى القيروان زادت صلته بالأشعرية نتيجة تتلمذه على أستاذه أبى الحسن القابسى الذي وصفته المصادر[٥] بأنه كان"فقيها أصولياً متكلماً" ، كان "له تصانيف فائقة في الأصول"[٦]، وألف رسالة في مناقب أبى الحسن الأشعري أثنى فيها عليه وذكر فضله وإمامته[٧].

كما قضى أبو عمران فترة من الزمن يدرس على أستاذه الهروى؛ الذي كان على"مذهب مالك ومذهب الأشعري... وحمله عنه المغاربة إلى المغرب والأندلس"[٨].

---

[١] التميمى، المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط١، تطوان الرباط ٢٠٠٢ م، ج٢، ص ١٨١؛ الشراط، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق زهراء النظام ، منشورات كلية الآداب ، ط١ ، الرباط ١٩٩٧م، ص٥٠ .

[٢] ابن القاضي، جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، ط دار المنصور، الرباط، ١٩٧٣، ص ١٩٤-١٩٥، روجيه إدريس، الدولة الصنهاجية(تاريخ افريقية في عهد بني زيري)، نقله الى العربية حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط١ ١٩٩٢م، ج٢، ص ٣١٦، ٣٣٠.

[٣] عياض، المدارك، ج٢، ص٢٤٣.والذي أورد أيضا طرفا من فتاويه للمنصور ابن أبى عامر و التي تحمل بعدا أشعرياً .

[٤] عياض، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٤٢.

[٥] عياض، المصدر نفسه، ج٢، ص٢٢٤؛ ابن عساكر، المصدر السابق، ص ١٢٢؛ ابن فرحون ، الديباج، ٢٩٦.

[٦] الذهبي، العبر، ج٣، ص٨٨، ومن أشهرها كتاب"الاعتقادات"، وكتاب " المبعد عن شبه التأويل".عياض، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٢٥؛ ابن فرحون ، الديباج، ٢٩٦.

[٧] ابن عساكر، المصدر السابق، ص١٢٢-١٢٣.

[٨] الذهبي، السير، ج١٧، ص ٥٥٧؛ ابن عساكر، المصدر السابق، ص ٢٥٥.

بيد أن نضج الفكر الأشعري لأبى عمران كان بالعراق على يد أستاذه الباقلانى–" المتكلم على مذهب الأشعري"[١] و"ناصر مذهبه ومؤيد اعتقاده"[٢]– الذي لم يدرس عليه أبو عمران غير علم الكلام[٣]؛ لأنه كان أعرف الناس به "وأحسنهم فيه خاطرا، وأجودهم لسانا، وأوضحهم بيانا، وأصحهم عبارة"[٤]، حتى انه نجح في إعادة بناء النسق الأشعري وأقام صرحه– متأثراً بتعاظم المد الليبرالي–وغصت كتبه بالنزعة العقلية[٥]، وقد أثنى ابن خلدون[٦] على الطريقة التي اتبعها الباقلانى، واعتبرها من أحسن الطرق؛ ، لذا؛ فقد حق لبعض الباحثين[٧] التأكيد على أن "القيمة الكبرى لعمل الباقلانى كانت في التنهيج، وفى بناء مذهب الأشاعرة الكلامي والاعتقادي بناءًمنظماً لا من حيث الطريقة المنطقية الجدلية فحسب، بل من حيث وضع المقدمات التي تتبني عليها الأدلة، ومن حيث ترتيب هذه المقدمات بعضها على بعض"، وحسب باحث آخر فان "الباقلانى قد انتقل بالتأليف الأصولي إلى مرحلة التوسع الشمولي والى مرحلة التمازج والتفاعل مع علم الكلام"[٨].

لقد أعطى ظهور الباقلاني في المشرق – نهاية القرن ٤هـ/ ١٠م كحامل للواء الأشعرية –دفعةً جديدة للتسرب الأشعري في المغرب، والسبب في ذلك أنه بالإضافة إلى أشعريته؛ فإنه

---

[١] ابن عساكر، المصدر السابق ، ص٢١٧ .

[٢] ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٩٤م، ج٣، ص٢٨٤، ج٤، ص٢٦٩.

[٣] عياض، المدارك، ج٢، ص٢٨٠.وعن العلاقة الجدلية بين الأشعرية وعلم الأصول عند أبي عمران انظر، النفراوى، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، تحقيق رضا فرحات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.، ج١، ص١٦٠.

[٤] النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط٥، ١٩٨٣م، ص٣٧.

[٥] محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا، ج٣، ص٩١

[٦] المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادي، نشر المركز الوطني للبحث العلمي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥، ، ج٣، ص ٣٤.

[٧] محمود الخضيرى ومحمد أبو ريدة، مقدمة تحقيق كتاب التمهيد للباقلانى، دار الفكر العربي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٩٥هـ، ص ١٥.

[٨] احمد الريسونى، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبى، دار الكلمة ، المنصورة، ط١، ١٩٩٧م، ص ٢٨.

كان من أعيان المذهب المالكي –مذهب المغاربة– بل" إليه انتهت رئاسة المالكيين في وقته"[١]، وكان تأثيره في المغاربة كبيراً ، حيث أصبح الباقلاني محج طلبة المغرب يأخذون عنه المذهب المالكي و الطريقة الأشعرية معا، وصار مرجعهم في المسائل و النوازل[٢].لكل ذلك، كان طبيعياً أن تترك عملية التلقي عن الباقلاني في نفس تلميذه المغربي أثراً عميقاً ، وهو ما اعترف به أبو عمران نفسه بقوله عنه، "سيف أهل السنة في زمانه، وإمام متكلمي أهل الحق.... رحلت إلى بغداد وكنت قد تفقهت بالمغرب والأندلس عند أبي الحسن القابسي، وأبي محمد الأصيلي، وكانا عالمين بالأصول، فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر ورأيت كلامه في الأصول والفقه، والمؤالف والمخالف، حقرت نفسي وقلت، لا أعلم من العلم شيئاً . ورجعت عنده كالمبتدئ"[٣].

كان مما أسهم أيضاً في الاتجاه السياسي للفقيه أبى عمران تتلمذه على أشخاص[٤] ذوى أدوار سياسية وبرامج إصلاحية معروفة، نذكر منهم على سبيل المثال، شيخه القاضي الأصيلى بالأندلس، والذي بلغ من حسه السياسي أنه تنبأ بوقوع الفتنة في الأندلس قبل نهاية القرن الرابع الهجري[٥]. وشيخه القابسى صاحب المواقف السياسية المشهودة بافريقية، والتي أشادت بها كتب التراجم[٦] وقد تأثر به أبو عمران تأثراً كبيرا حتى أنه نُسب إليه فكان يلقب بـ"ابي عمران القابسى"[٧].وشيخه أبي عبدالله بن الوشاء المصرى (ت٣٩٧هـ)، الذي تسببت مواقف العدائية من الفاطميين في اعتقاله مرات كثيرة[٨].وشيخه الباقلانى، الذي كان شديد الصلة بعضد الدولة

---

[١] عياض، المدارك، ج٢، ص٢٠٤؛ الذهبي، السير، ج١٧، ص١٩١؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ج٣، ص٢٦٩.

[٢] إبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب وموقف العلماء منها، دار قرطبة للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط١، ٢٠٠٦ م ، ص ١٣ – ١٤ .

[٣] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٠٤.

[٤] عن مشايخ أبي عمران انظر عياض، المصدر السابق، ج٢، ص٢٨٠.

[٥] عياض، المصدر نفسه، ج٢، ص٢٤٥؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج١، ص٣٠٢.

[٦] انظر على سبيل المثال عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٢٦؛ الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص١٤٠.

[٧] ابن بشكوال، المصدر السابق، ص٧٨٨؛ عياض، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٧٦، ٣٦١؛ الذهبى، السير، ج١٧، ص ١٦٠؛ أبو المحاسن ، المصدر السابق، ج٥، ص٧٧.

[٨] عياض، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٢١.

البويهى؛ ومن أهم رجال حاشيته؛ وقد بلغت مهارته السياسية درجة اختياره سفيراً للسلطة البويهية إلى بلاد الروم[١]، ومبعوثاً لها إلى القادة والأمراء[٢] ، ومفاوضاً مع خصومها السياسيين[٣]، كما نسبت له مؤلفات عدة ذات أبعاد سياسية[٤] .

لعل في تردد أبي عمران المتواصل على بغداد ما يدعو إلى الظن أنه جلس إلى الفقيه الأشعري الماوردي(ت٤٥٠هـ) الذي اشتهر مجلسه في بغداد خلال العقد الثالث من القرن الخامس الهجري، وربما اطلع على مؤلفاته التي اشتهرت بعمقها في الفكر السياسي، والتي أبرزت تفهم كاتبها لمعطيات عصره السياسي، فاشترط تحالف الدين والقوة والمال من اجل إقامة الدولة[٥].ويبدو أن أبا عمران كان شديد الوعي والتأثر بتلك الرؤية ، حين سعى إلى تطبيقها بالمغرب، عن طريق الاستعانة بعصبية صنهاجة، والتحكم في تجارة السودان لإقامة دولة المرابطين، كما سيتضح في حينه.

صار من باب اللازم؛ ارتباط الفكر بالواقع والبيئة؛ وأضحي من مستلزمات دراسة الأفكار والشخصيات النبش في البيئة والظروف التي عاشت فيها وعايشتها، وقد كانت البيئة وظروف العصر التي عاشها الفقيه أبو عمران، بتحولاته المختلفة، ذات اثر كبير على تكوين أفكاره؛ وصقل شخصيته بأبعاد سياسية إصلاحية، بث من خلالها آرائه وأفكاره وتجربته السياسية.

فقد عايش حالة التردي التي وصل إليها العالم الإسلامي أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجريين، وعلى كافة المستويات، لا سيما السياسية منها، حيث وقع العالم الإسلامي تحت سلطات ثيوقراطية هشة؛ وقوى عسكرية متسلطة؛ إذ فقدت الخلافة العباسية هيبتها وتحكم

---

[١] النباهي، المصدر السابق، ص ٤٠.

[٢] ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص٦٣.

[٣] ابن الأثير، المصدر نفسه، ج٦، ص٤٤٧.

[٤] من أشهرها، "كتاب نصرة العباس وامامة بنيه"، و"كتاب في إمامة بني العباس"، و"رسالة الأمير"، وكتاب "كشف الإسراء في الرد على الباطنية".انظر عياض، المدارك، ج٢، ص٢١٤.

[٥] أبو الحسن الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق محيي الدين هلال السرحان، دار النهضة العربية، ١٩٨١ م، بيروت، ص ١٥٣.

فيها العسكر البويهيون؛ الذين تعرض على أيديهم الخلفاء للعزل والسجن والقتل والتعذيب[١]، فتمزقت دولة الخلافة، وتصدعت وحدتها، وتجزأت إلى إمارات ودويلات عرقية وطائفية وإقليمية[٢].

ولم تكن أحوال الغرب الإسلامي أحسن حالاً، فقد عانت بلاد المغرب أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الهجريين حالة من التشرذم السياسي، عبر عنها ابن عذارى[٣] بصورة تغنى عن الزيادة في التفصيل، إذ يقول" وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك طوائف الأندلس".وانعدم الأمن لتعاظم الاضطرابات والقلاقل السياسية، والمواجهات العسكرية حتى صارت البلاد قبيل عصر المرابطين مرتعاً للسفك والنهب والخطف[٤]، بصورة جعلت أحد الدارسين[٥] يطلق على تلك الفترة من تاريخ المنطقة اسم " عصر الفوضى السياسية".

وهو ما ينسحب على الأندلس التي قضى بها أبو عمران فترة من حياته؛ كانت كافية ليلمس بدقة درجة ضعف المسلمين وتخاذلهم أمام الأعداء؛ وليعود منها مفعماً بالحماس.فقد عصف التمزق السياسي بالدولة الأموية؛ فانفرط عقد وحدتها؛ وتسابق المتغلبون وقواد الجند والمتآمرون إلى اقتطاع الأعمال؛ والانتزاء في النواحي؛ والاستبداد بالأقاليم، مدشنين عصر الفرقة على أنقاض أيام الجماعة؛ التي أدبرت إلى غير رجعة[٦].ويصف شيخ مؤرخي الأندلس

---

[١] يقول البيرونى " إن الدولة والملك قد انتقلا من آل عباس إلى آل بويه والذي بقى بأيدي خلفاء الدولة العباسية إنما هو أمر ديني واعتقادي وليس ملكا دنيويا". انظر كتابه، الآثار الباقية عن القرون الخالية، بحقيق الدكتور س. إدوارد ساخو، ط ليبزج ١٨٧٨ م.

[٢] انظر تفصيلا لتلك الأوضاع وترديها عند، وفاء محمد علي، الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ١٩٩٠م، ص ٣٩-٦٠.

[٣] المصدر السابق، ج٤، ص ١٠.

[٤] البلوى، العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ١٥٤ بعثة المعهد الأولى إلى المغرب، ورقة ١٦٩، ابن ابي زرع، المصدر السابق، ص١٠٠.

[5] CHAUREBIERE, C., *Histoire du Maroc*, Paris, 1931,p. 157

[٦] انظر تفصيلاً لذلك عند ابن حزم، رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، تحقيق إحسان عباس، لمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، ط٢ ١٩٨٧ م ، ج٢، ص ١٩٦- ٢٠٨.

ابن حيان[١] هذه السنوات بأنها كانت"شداداً نكدات، صعاباً مشئومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة؛ لم يعدم فيها حيف، ولا فورق فيها خوف؛ ولا تم سرور، ولا فقد محذور؛ مع تغير السيرة، وخرق الهيبة، واشتعال الفتنة، واعتلاء المعصية، وظعن الأمن، وحلول المخافة".ويؤكد ابن عبد البر[٢] تلك الحقيقة بقوله، "وانقطع ملك بني أمية بعد الأربعمائة بأعوام يسيرة، فصار كل من غلب على موضع ملكه واستعبد أهله، وكثر فيها الأمراء، فضعفوا وصاروا خولا للنصارى، يؤدّون إليهم أضعاف ما كانوا يأخذون منهم اليوم". وبنبرة يعلوها الحزن والأسى راح ابن حزم[٣] يطعن على حكام زمانه الذين راحوا "يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم، يحملونهم أساري إلى بلادهم، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحسرهم معهم آمنين،وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً ؛ فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه"، أما المقرى[٤] فقد أجمل أحوال الأندلس خلال تلك الفترة بقوله، " تفرقت الدولة وانتشر السلك وكثر الرؤساء وتطاول العدو عليها وأخذها شيئا فشيئا".

كانت تلك المحن السياسية والدينية، والتي تزامنت مع تردى الأوضاع الاقتصادية وانهيار القيم السلوكية والأخلاقية،تمثل تحدياً صارخاً للروح الإسلامية؛ التي غذت فكر أبى عمران؛ وصقلت شخصيته العلمية والدينية، والتي كانت تنزع لا محالة إلى الوحدة السياسية تحت راية الإسلام عقيدة على الطريقة السلفية وشريعة على المذهب المالكي، فقد جال الرجل العالم الإسلامي من المغرب إلى الأندلس إلى مصر إلى الحجاز إلى العراق[٥]، وكانت له مآخذ كثيرة على الواقع، بل من المرجح – وقد بلغ عند بداية هذه الرحلات السادسة والعشرين من عمره– أنه كان ينظر إلى هذا الواقع نظرة الناقد المميز؛ الذي ساءه مظاهر عدة كونت لديه

---

[١] نقلاً عن ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ج١، ١٩٨١، ص٣٦.

[٢] القصد والأمم في التعريف بأصول انساب العرب والعجم، القاهرة، ١٣٥٠هـ، ص٣٥.

[٣] الرسائل، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٣، ط١، ١٩٨٣، ص ١٧٦.

[٤] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١ ، ١٩٩٧، ج٢، ص ١١٢.

[٥] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٨٠؛ الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص١٥٩؛ الذهبي، السير، ج١٧، ص ٥٤٥.

الرفض لها والنقمة عليها والرغبة في تغييرها، حتى روت المصادر أنه كان ذا هيبة ووقار وسكينة، قليل الضحك، يعلوه الهم لأحوال أمته لدرجة انه ما رؤى ضاحكاً إلا مرة واحدة[١].

المحور الثاني ، الدور السياسي للفقيه أبي عمران الفاسي:

تدفع المعطيات المصدرية إلى الظن بأن نقطة الانطلاق في مسيرة الفقيه أبي عمران السياسية كانت في مسقط رأسه مدينة فاس، تلك المدينة التي عاشت خلال الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري فراغاً سياسياً هائلاً ؛ نتيجة انهيار دولة الأدارسة؛ ودخول المنطقة في صراع عنيف ومواجهات دامية دارت رحاها بين الفاطميين وحلفائهم الزيريين من ناحية، والعامريين في الأندلس من ناحية أخرى، إلى أن انفرد بحكم المدينة الزناتيون(٣٨٠-٤٦٢هـ) ؛ الذين عجت فاس في عهدهم بالفتن؛ وتعاورتها التبعيات؛ وعاشت أحداثاً مأساوية[٢]، جعلت أهلها يعيشون تحت ضغط السندان والمطرقة؛ حيث تردت الأحوال المعيشية؛ وشاعت الفوضى الأمنية؛ وتفشي الظلم الاجتماعي، وعم الجوع والغلاء، وعدمت الأقوات، وصارت البلاد مرتعاً للسفك والنهب والخطف[٣].ولم يشفع كل ذلك عند حكام المدينة؛ فراحوا يثقلون كاهل السكان بشتى ألوان الجبايات والمغارم ؛ وتوالى منهم الظلم والعدوان[٤]؛ حتى أن رؤساءهم كانوا "يأخذون أموال التجار، فلا يقدر أحد أن يصدهم عن ذلك ولا يتجرأ أن يكلمهم فيه، ومن لم يوافقهم في شيء من ذلك أو صدهم عنه قتلوه ..."[٥]. بل اقتحموا على الناس ديارهم، ونهبوا ما فيها من الأموال والأقوات، وتعرضوا للنساء والصبيان، مما دعي السكان إلى اتخاذ المطامير والمخابئ للاختفاء بها [٦]، واضطر آخرون منهم للالتجاء إلي أربطة الأولياء والمتصوفة والتحصن فيها، وان لم

---

[١] الدباغ ، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٠، ١٦٣.

[٢] انظر طرفاً من هذه الأحداث وتداعياتها عند ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٠٢-١٠٨؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج١، ص٢٣١-٢٥٢.

[٣] الازموري، بهجة الناظرين وانس العارفين، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ١٤٣٧، ورقة ١٢٩، ١٣٠؛ ابن القاضي، المصدر السابق، ج١ ص٣٣٨؛ مجهول، جمع تواريخ فاس، ص ٢١.

[٤] مجهول، نبذ تاريخية، ص ٤٢؛ ابن الأحمر، المصدر السابق، ص ٢٨.

[٥] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٠٠.

[٦] ابن خاقان، قلائد العقيان، قدم له ووضع فهارسه محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، سلسة"من تراثنا الإسلامي"، رقم(١)، ص ٣٠؛ ابن القاضى، المصدر السابق، ج١، ص٣٣٨؛ مجهول، نبذ تاريخية، ص ٤٢؛

يمنع ذلك من وقوع بعضهم في قبضة تلك الجماعة التي رصد أفرادها مخارج المدينة ومنافذها [١].

كان بديهياً أن يتجلى موقف سياسي صلب للفقيه أبى عمران تجاه تلك الأوضاع، فقد أكدت روايات المصادر انه " كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وبسبب ذلك أخرجه من فاس الطغاة من أهلها العاملين عليها لمغرواة، فاستقر بالقيروان" [٢]

لا تكشف المصادر حقيقة عن زمنية ذلك الموقف السياسي لأبي عمران، وربما ارتبط ببداية رحلاته العلمية إلى المشرق أوائل القرن الخامس الهجري، والتي كونت لديه قناعة بضرورة المشاركة الفعلية في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،ذلك الشعار الذي لقي انتشاراً واسعاً في المشرق الإسلامي؛ اعتباراً من بدايات القرن الخامس الهجري[٣].ولعله كان انطلاقاً من رؤية مشرقية سادت أوساط أهل الفكر السياسي وقتئذ، وكانت تذهب إلى أن الحاكم "إذا تواصل منه العصيان وفشا منه العدوان، وظهر الفساد وزال السداد، وتعطلت الحقوق والحدود وارتفعت الصيانة، ووضحت الخيانة، واستجرأ الظلمة، ولم يجد المظلوم منصفاً ممن ظلم، وتداعى الخلل..و عظمت جنايته وكثرت عاديته وفشا احتكامه واهتضامه، وبدت فضاحاته وتتابعت عثراته.. وان اتفق رجل مطاع ذو أتباع وأشياع ويقوم محتسبا آمراً بالمعروف ناهًيا عن المنكر..فليمض في ذلك قدما والله نصيره.." [٤].وراحت فتاوى أبى عمران –والتي صدرت غالباً خلال تلك الفترة– تؤكد على قناعته بتلك الرؤية، فقد ذهب إلى أن " الغاصب ظالم غير محسن، ومن ظلم فواجب أن يحمل عليه"[٥]، وان "أحكام الجماعة الذين تمتد إليهم الأمور عند

الناصرى، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط١ ١٩٩٧م، ج١ ص٢٠٦–٢٠٧.

[١] ابن الزيات التادلي، المعزى في مناقب أبي يعزي، مخطوط بالهيئة العامة للكتاب، تحت رقم ١٢٤٩ تاريخ تيمور، ميكروفيلم ٢٢٧٧٠٣، ورقة ٥٢؛ الدرعي، الدرر المرصعة في أخبار أعيان درعة، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ١٦١٠ تاريخ، ورقة ٦٢ .

[٢] ابن الأحمر، المصدر السابق، ص ٤٤.

[٣] سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الاسكندرية، ج٤، ص١٦٠.

[٤] الجوينى، غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق ودراسة مصطفى حلمي وفؤاد عبد المنعم، دار الدعوة للطبع والنشر، الإسكندرية، د.ت.، ص ٨٠ ، ٨٨–٨٩.

[٥] البرزلي، المصدر السابق، ج٥، ص ١١٣..

عدم السلطان نافذ منها ما جرى على الصواب والسداد في كل ما يجوز فيه حكم السلطان"[١] و"أن جماعة العدول تقوم مقام الإمام في المحارب وفي القصاص إنما ذلك حيث يتعذر تناول السلطان"[٢] ، ولعل في فتواه بأن من باع حراً يحد ألف جلدة ويسجن سنة ويؤدى ديته غالى أهله"[٣]، ما يؤكد رغبته في مواجهة حالة الفوضى – نتيجة غياب السلطة– التي عانت منها مدينة فاس خلال تلك الفترة ضمن غيرها من البقاع المغربية.

وعليه، فيجب الانتباه إلى أن دعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ التي تبناها أبو عمران في فاس خلال تلك الفترة؛ كانت تتعلق في الأساس بحالة سياسية تهدف نحو التصدي لحكام زناتة؛ وما أحدثوه من المظالم، ولا شك أنها كانت واحدة من القواعد الهامة التي أسست لقيام دولة المرابطين "التي قامت بعد الأربعين والأربعمائة بدعوة الحق ورد المظالم وقطع المغارم"، حسب شهادة البكري [٤]، يضاف إلى ذلك ما أورده ابن الأحمر[٥] من أن أبا عمران عند اجتماعه بالأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي " ندبه إلى...قتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم، واستنزال رؤسائهم من الولاية، فوعده يحيي بالنهوض إلى ذلك"، مما يدحض الزعم القائل بأن مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مخيلة أبي عمران كان يتعلق بالنهي عن اجتماع أهل الزهد والعبادة، الذين كانوا يجمعون بين قراءة القرآن وحكاية قصص الصالحين وإنشاد الشعر[٦]، ولا أدل على ذلك من تلك الشواهد التي تؤكد على أن الرجل كان من أهل الزهد والتصوف تأثراً بأستاذه القابسي، الذي أقام أبو عمران على قبره فسطاطاً ومكث فيه شهراً يمارس ألوانا من الزهد والتصوف[٧]،كما انه ترك عند تلامذته أثراً كبيراً في هذا الجانب[٨]،

---

[١] الونشريسي، المصدر السابق، ج١٠، ص١٠٣.

[٢] الرعيني، المصدر السابق، ج٥، ص ٥٦٩.

[٣] الرعينى، المصدر نفسه، ج٧، ص٣٣٠.

[٤] المصدر السابق، ص١٦٤.

[٥] المصدر السابق، ص ٢٨.

[٦] عبد الله كنون، المرجع السابق، ص٥٢– ٥٣.

[٧] الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٤.

[٨] التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق احمد التوفيق، الدار البيضاء ١٩٨٤، ص ٨٩– ٩٠؛ ابن قنفد، انس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وادولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٥، ص ١٠٦؛ الناصري، المصدر السابق، ج٢، ص٧.

وكانت شهرته الصوفية وراء تلقيبه "بالشيخ الولي"[١]، وتحمل الناس مشاق الرحلات الطويلة للتبرك والتوسل به لجلب منفعة أو دفع ضر، سواء في حياته[٢]أو بعد وفاته[٣]، وهو ما دفع البعض إلى الإلحاح في وصاياهم بان يدفنوا بجوار قبر أبى عمران " بقصد التبرك"[٤].

واعتماداً على نص صريح عند ابن الأحمر[٥] فإن الذين تولوا مهمة طرد أبي عمران من فاس هم عمالها ووجهاؤها "لنهيه لهم عما أحدثوه من البدع والمظالم والمغارم، وأخذهم أموال الناس بغير حق، وأعانوا على ذلك ولاة أمرهم من بني أبي العافية المكناسيين ومغراوة وبني يفرن..ولذلك نهاهم أبو عمران فأخرجوه بسبب ذلك واستقر بالقيروان"، وهو ما يدحض زعماً آخر بأن اتجاه الرجل إلى القيروان كان قرارا اختيارياً هدفه طلب العلم ومجالسة العلماء[٦].

تذهب بعض الروايات[٧] إلى أن عملية طرد أبي عمران من فاس قد تم بمباركة مناوئيه من فقهاء السلطة من المالكية المحافظين؛ الذين ربما انطلقوا في موقفهم هذا من قاعدة شرعية تتهم أبا عمران في عقيدته نتيجة اشتغاله بعلم الكلام وتبنيه للفكر الأشعري، اللذين أبدى المالكية تجاههماصدوداً ملحوظاً، لأنهم كانوا لا "يدخلون في الكلام... ولا يخوضون في المعقولات"[٨]، وينافرون "الاعتقاد على طريق الأشعرية..ويعادون من ظهرت عليه، شديداً أمرهم في ذلك"[٩]، حتى صار أهل الأهواء عندهم "هم أهل الكلام فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعريا كان أو غير أشعري ولا تقبل له شهادة في الإسلام ويهجر ويؤدب على بدعته،

---

[١] ابن أبى دينار، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، تونس، ١٢٨٦هـ، ص ١٠١.

[٢] ابن الأحمر، المصدر السابق، ص ٢٧.

[٣] الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٤ .

[٤] محمد الجودي القيرواني، تاريخ قضاة القيروان، نشر وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب، د. ت، ص ١٢١.

[٥] المصدر السابق، ص ٢٧-٢٨.

[٦] محمد الفاسي، " عبدالله بن ياسين وانتشار الإسلام بإفريقيا"، المجلة الإسلامية، ع ١٢، ١٩٨٢م، ص ٢٩.

[٧] ابن فرحون، الديباج، ص٢٩٦؛ ابن الاحمر، المصدر السابق، ص ٢٧-٢٨.

[٨] الذهبى، السير، ج١٧، ص ٥٥٧.

[٩] المراكشى، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط١ ١٣٦٨هـ، ص ١٨٤.

فإن تمادى عليها استتيب منها"[١]، واتهموا من اشتغل بعلم الكلام أنهم" قادة حيرة وعماية"[٢]من" أهل السفسطة المسخرين لحماقات كتب ابن فورك والباقلانى"[٣]، واعتبروا أكثر مقالاتهم " شرك مجرد وإبطال للتوحيد ...وحماقة ممزوجة بكفر"[٤]، لذلك لم يتورعوا عن إصدار فتوى صريحة بـ" تكفير كل من ظهر منه الخوض في علم الكلام وكراهة السلف له[٥]، وقد تأسوا في موقفهم هذا بالإمام مالك بن انس؛ الذي كان يرفض الجواب عن الأسئلة الافتراضية، أو الانشغال بالمسائل النظرية، ويتجنب الخوض في المسائل الكلامية، ويتهم الخائضين فيها بأنهم أهل الأهواء والبدع، الذين لا تجوز شهادتهم أو إجارة كتبهم [٦]

لقد مثل الفقيه أبو عمران–الذي اشتغل بعلم العقليات[٧]، وكان ذا اهتمام بالكيمياء[٨]والتنجيم[٩]المحرمين من قبل الفقهاء[١٠]–رائداً لمدرسة التجديد التي دخلت في صراع كبير مع مدرسة التقليد ذات التعلق الضيق بالنص، والتي اعتصم أصحابها بسلطة السلف ضد سلطة العقل البياني والمنهجية التعقيلية للنصوص، واعتمدوا "الجمود على العبارات الظاهرة والوقوف معها"[١١]، ورفضوا الخوض في المسائل الكلامية، واخرجوا المتكلمين من زمرة العلماء، وانشغلوا بقضايا تافهة، لم يسلم منها حتى أولئك الذين اشتهروا بالمجادلات الشرعية، وكانوا

---

[١] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبى الأشبال الزهيرى، دار الحرمين للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص ٩٤٣.

[٢] ابن رشد، المصدر السابق، ص ٨٠٤.

[٣] ابن حزم، الرسائل، ص ١٩٣.

[٤] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد بن إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط٢ ،١٩٩٦، ج٢، ص ٣٠٢، ٣٠٣.

[٥] المراكشى، المصدر السابق، ص١٧٢؛ ابن رشد ، المصدر السابق، ص ٨٠٤.

[٦] انظر تفصيلاً لذلك عند السكونى، عيون المناظرات، تحقيق سعد غراب، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ١٩٧٦، ص ٢٠٤–٢٠٥؛ عياض، المدارك، ج١، ص ٨٨.

[٧] الذهبى، السير، ج١٧، ص ٥٤٥.

[٨] الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٣.

[٩] ابن الأزرق، المصدر السابق، ص ١٥١.

[١٠] ابن حزم، الرسائل، ج٤، ص٦٢.

[١١] السبكي، المصدر السابق، ج٦، ص٢٤٤.

أكثر تفتحاً من غيرهم[١]، وهو ما يفسر تلك المناظرات التي دارت رحاها بين أبى عمران وبين أقطاب الفكر التقليدي[٢]، فضلاً عما دب بينه وبين بعضهم من "خلاف ونزاع ومراجعة"[٣]، بلغت من العمق أن منع بعض شيوخ تلك المدرسة تلامذتهم من حضور دروس أبى عمران أو النقل عنه، مما يشي بدلالة ضمنية عن فتوى غير مباشرة بدخول الأمر في دائرة التحريم[٤]، وعليه نفهم ما قرره فقهاء المدرسة التقليدية[٥]من حرمة الفتوى من الكتب التي يميل مؤلفوها المالكية إلى علم الكلام، ولا يعتمدون النقل في فتواهم من الكتب المشهورة الموثوق في التزام أصحابها بنهج مالك في الالتزام بالنص والبعد عن الرأي والتأويل، والتي تندرج تحتها كتب أبي عمران.

لم يكن اختيار أبي عمران للقيروان – بعد خروجه من فاس–اعتباطياً ،ففضلاً عن كونها موطن أستاذه القابسي، كانت القيروان منذ مطلع القرن الخامس الهجري عاصمة الثقافة بالغرب الإسلامي[٦]، استناداً إلى تاريخها العلمي والسياسي[٧]فضلاً عن كونها مركزاً تجارياً هاماً تتقاطر عليه قوافل التجارة والحجيج من كل مكان[٨]، ومعقلاً للمالكية الذين كونوا بها – مع دخول العصر الفاطمى– فئة اجتماعية متنفذة لها ثقلها الكبير في الشئون السياسية والقضائية،

---

[١] روجيه إدريس، المرجع السابق، ج٢، ص٣١٢.

[٢] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٨٣؛ الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص١٦٨.

[٣] عياض، نفسه.

[٤] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٣، الدباغ، ج٣، ص ١٥٥.وهو الموقف ذاته الذي اتخذه فقهاء المشرق من الباقلانى، فقد أعلن الفقيه أبا حامد الإسفراييني (ت٤٠٦هـ)أمام الناس إنه بريء من مذهب الباقلاني، وقد نهى بعض أصحابه عن الدخول على الباقلاني لدراسة علم الكلام، و قال له، " فإياك وإياه ، فإنه مبتدع ، يدعو الناس إلى الضلالة ، و إلا فلا تحضر مجلسي".ابن تيمية، درء التعارض بين العقل و النقل، تحقيق محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط٢ ١٩٩١م، ج ٢ ص ٩٧.

[٥] انظر القرافى، الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، نشر ومراجعة عزت العطار، القاهرة ، ١٩٣٨م، ص ٧٧.

[٦] المراكشي، المصدر السابق، ص٥٠٢؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ج٦، ص٢٦٣٦ .

[٧] الحميري، المصدر السابق، ص٤٠٦؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٠٢.

[٨] المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ١٩٩١، ص ٢٢٥.

كما تدعمت مصادر ثروتها وتنوعت بفضل الأحباس[١]، ولا شك أنها عوامل متضافرة تهيأ المناخ الأمثل لممارسة ونشر دعوته الدينية والسياسية ومنهجه الإصلاحي .

لم تكن تجربة فاس – رغم قسوتها– لتثني أبا عمران عن التصدي لممارسات الحكام الجائرة، والوقوف أمامها بكل شدة، وهو ما دفعه سريعاً إلى الانضمام في زمرة المالكية المناهضين للظلم والمتصدين لمظاهر الجور والاعتداء، والذين تزعمهم الفقيه القابسي، وقد تجلي دورهم بشكل لافت عقب تلك الحادثة التي هزت مدينة المهدية؛واستدعت موقفاً صلباً ومواجهة قوية، فقد اغتصب نصراني من حاشية البيت الزيري صبية عربية شريفة، مما أدى إلى قتله على يد العامة، الأمر الذي أثار حفيظة الأمير باديس بن زيري (٣٨٦-٤٠٦هـ)، فأمر بإرسال قوة عسكرية إلى المهدية لمعاقبة أهلها،مما استدعى موقفاً جريئاً من الشيخ القابسى، الذي انتدب أبا عمران الفاسي، الذي كان "من اجل أصحابه"[٢]و" أكبر تلامذته"[٣]، ضمن مجموعة أخرى من تلامذته – الذين اجتمعوا حوله لحمايته من بطش الأمير الزيري– وحمّلَهُم رسالة مكتوبة ذات طابع ثوري، وأمرهم بقراءتها على منبر المسجد الجامع بالقيروان؛ لتهييج مشاعر الناس ضد الأمير .ودون تردد؛ اندفع أبو عمران مع صحبته نحو المسجد، فقرئت الرسالة بصيغتها العنيفة، ويبدو أنها أحدثت تأثيراً كبيراً على العامة، حتى أن السلطة الزيرية آثرت احتواء الموقف خشية وقوع ثورة عنيفة يقودها القابسى وتلامذته[٤].

استناداً إلى معطيات المصادر؛ يمكن التكهن بان الصراع الذي دارت رحاه أواخر القرن الرابع وبداية الخامس الهجريين بين المذهبين السني بفرعيه الأشعري والمالكي من جهة، والشيعي من جهة أخرى، قد نتج عنه إقدام المعسكر السني على وضع خطة محكمة نسجت تفاصيلها في المشرق، بمشاركة الخليفة العباسي القادر، والفقيه المالكي الأشعري الباقلانى، ومالكية المغرب لا سيما القابسى[٥]وتلميذه الأول أبي عمران الفاسي، وكانت تهدف في الأساس

---

[١] انظر حول هذه المسالة مقال لنجم الدين الهنتاتى، "الأحباس بافريقية وعلماء المالكية إلى منتصف القرن ٦هـ/١٢م" ، الكراسات التونسية، ع ١٧٤، الثلاثية الثالثة لسنة ١٩٩٦، ص ٧٩-١٢١.

[٢] الذهبي، القراء، ج١، ص ٣٨٩ ؛ أبو المحاسن، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٠.

[٣] الذهبي ، السير، ج١٧، ص ٥٤٥.

[٤] عياض، المدارك، ج٢، ص٢٢٦؛ الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص ١٤٠.

[٥] عن رحلات القابسي إلى المشرق انظر عياض، المصدر السابق، ج٢، ص٢٢٤؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ج٣، ص٣٢٠؛ ابن فرحون، الديباج، ص٢٩٦.ولما كان القابسي قد أُصيب بالعمى بعد استقراره بالقيروان

نحو مواجهة الفاطميين الشيعة؛ والسعي إلى تطويق دولتهم من الشرق والغرب، من خلال إقامة كيان سياسي سني يوحد مناطق الغرب الاسلامي[١].

فقد درس الخليفة العباسي القادر على أحمد بن محمد الهروي(٢)، وسعى بشدة نحو مجابهة التشيع[٣]والاعتزال؛ اللذين انتشرا قبيل عهده بشكل لافت[٤]، فألف كتباً للرد عليهم[٥]، وأصدر أوامره بوقف دروسهم؛ وقطع مناظراتهم؛ وتوعد المخالفين بأشد العقوبة[٦] ، واعتاد بلاطه عقد اجتماعات بحضور فقهاء السنة؛ لتحرير محاضر تقدح في نسب الخلفاء الفاطميين، وتنفى انتسابهم إلى على بن أبى طالب[٧].وكان للبقلانى –أستاذ أبى عمران– دور كبير في ذلك؛ حيث حشد طاقته الذهنية للطعن في نسب الفاطميين[٨]، وألف في ذلك مؤلفات خاصة تهتك

(الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص١٣٩)، مما صعب عليه مهمة الترحال إلى المشرق ، فلعله انتدب إلى هذه المهمة تلميذه النجيب أبا عمران ، الذي واصل تنفيذ الخطة بعد وفاة أستاذه عام ٤٠٣ هـ.

(1) Cuoq, J. , *Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'Ouest, des origines à la fin du XVI^e siècle*, Paris,1984, p.30.

(٣) الذهبي، السير، ج١٥، ص١٢٧.

(٣) ربما كانت الثورة العنيفة التي تعرض لها الفاطميون من قبل الثائر أبي ركوة كانت بتدبير من الخليفة العباسي القادر، حيث اعتمد هذا الثائر في ثورته على الدعوة لهذا الخليفة.ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص ٤٢.

(٤) ابن تيمية، نقض تأسيس الجهمية، تحقيق محمد بن قاسم، ط١،١٣٩١هـ، مطبعة الحكومة، مكة، ج٢ ، ص ٣٣١؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دولة الملوك، تحقيق عبدالقادر عطا، ط١، ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ص١٢٥.

(٥) الذهبي، السير، ج١٥، ص١٢٨.

(٦) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ج١٥، ص ١٢٥.

(٧) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص٣١٠؛ أبو المحاسن، المصدر السابق، ج٥، ص ٥٢.

(٨) أبو المحاسن، المصدر السابق، ج٤، ص٧٥؛ الصفاقسي، نزهة النظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزاوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٨م، ج١، ص ٣٣٨.

أستارهم وتكشف أسرارهم[١]، وهو ما حدا بالمالكية أن يعتبروه "سيف السنة ولسان الأمة" [٢] و"حصنا من حصون المسلمين"[٣] و"مجدد الدين على رأس المائة الرابعة"[٤].

نحو تنفيذ الخطة، انتدب الباقلانى بعض تلامذته من مالكية المغرب لتولي المهمة، ولا شك أن نبوغ أبي عمران؛ وعلو كعبه المعرفي والذهني؛ وسعة إطلاعه وقوة حجته؛ قد لفتت نظر أستاذه الباقلاني، وأهلته للانضمام ضمن الثلة المختارة، فقد ذكرت المصادر[٥]أن الباقلانى كان شديد الإعجاب بأبي عمران كثير الثناء عليه،حتى أنه اعتبره جامعاً لعلم مالك وناصراً له.ولعل في تردد أبي عمران المتواصل على بغداد إلى قبيل وفاته [٦]ما ينهض دليلاً على مشاركته في تنفيذ تفاصيل تلك الخطة، من خلال إطلاع القائمين عليها بآليات تنفيذها وما يستجد من تطورات،وتلقى ما يُملى عليه عندهم من توصيات.

أيقن أبو عمران أن آليات خاصة ووسائل عدة يجب اعتمادها في تنفيذ الخطة المذكورة، يأتي في مقدمتها الالتزام ببرنامج تربوي تعليمي، يهدف نحو تكوين جيل مثقف؛ قادر على القيام بمهمة التغيير وتنفيذ مشروعه السياسي، وعليه، نفهم السر وراء حثه أولياء الأمور على ضرورة إلحاق أولادهم بالكتاتيب، وأفتى بأن " ينكل بمن امتنع من تسليم ولده إلى المكتب، ويجبر على ما ينوبه من أجرة المعلم،من أبى طُرد وذُفيَّ إن قُدر عليه، لهدمه ركناً من أركان الدين، ولا تجوز شهادته، ويؤدب أدباً وجيعاً "[٧].وللهدف ذاته؛ اجتهد في حشد أكبر عدد من التلاميذ في مجالسه العلمية، التي تعددت معارفها لتشمل القران وعلومه، والحديث وعلومه،

---

[١] أبو المحاسن، المصدر المصدر السابق، ج٥، ص٣٤١؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ج٢، ص١٥٠.وانظر فهرست بهذه المؤلفات عند عياض، المدارك، ج٢، ص ٢١٣-٢١٤.

[٢] الذهبي، السير، ج١٧، ص١٩٠.

[٣] عياض، المدارك، ج٢، ص٢٠٤.

[٤] الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج٢، ص١٦٩؛ عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٠٥.

[٥] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٨١؛ الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص١٦٠.

[٦]عياض، المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٥؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ص٨٨٢؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج١، ص ٢٧٥؛ الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص١٦٣.

[٧] الشوشاوي، الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة، تحقيق إدريس عزوزي، نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الرباط، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ٢٩١-٢٩٢ .

والفقه وأصوله، واللغة وآدابها، وتخرج على يديه فيها "خلق من الفقهاء والعلماء"[١]"من الفاسيين، والسبتيين، والأندلسيين"[٢].ولم يقتصر في التدريس على المجالس العامة؛ بل جعل من بيته مدرسة يقصدها الطلاب للمذاكرة والسماع من الفجر إلى الظهر[٣]، ولذلك فقد أنكر على يهودي أن يدخل داره ووبخه بقوله" أما علمت أن داري كمسجدي"[٤]

رغبة في دعم مشروعه السياسي وحشد أكبر عدد له من الأنصار، أدرك أبو عمران أهمية مناصرته لهموم الناس وقضاياهم، والارتقاء فوق الخلافات الفقهية الضيقة؛ التي استنفذت جهود الفقهاء، وأيقن ضرورة جمع الكلمة ونبذ الفرقة وتوحيد الصف، وحشد العامة نحو المصالح الاعتبارية الكبرى، ، فقد أهمه انشغال فقهاء القيروان في عصره بتافهات القضايا الدينية وانشغالهم بذلك عن حركة الانبعاث النهضوية؛ والاهتمام بمسارات الإصلاح؛ ومجابهة الظلم والفساد، مما أوقعه في مواجهات قوية مع بعضهم[٥]، وهو ما يفسر عزوفه عن تدريس القراءات والتجويد، واعتكافه على تدريس الفقه والحديث لتصحيح المسار الفقهي، ولما لهما من دور في التأثير السياسي على الناس[٦]، وتحريه المسلك المقاصدي في فتاويه[٧]، ومراعاته التيسير والتخفيف في التنزيل والإفتاء[٨]، واستناده فيها إلى ما جرى به العرف لجمع الكلمة[١]، ونبذه

---

[١] الذهبي، السير، ج١٧، ص٥٤٥.

[٢] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٨٠.

[٣] الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٠.

[٤] نفسه.

[٥] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٨٣؛ الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص١٦٨.

[٦] الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م، ج٢، ص ٣٢١-٣٢٢؛ الذهبي، القراء، ج١، ص ٣٩٠ ؛ الذهبي، السير، ج١٧، ص ٥٤٦.

[٧] البرزلي، المصدر السابق، ج١، ص٤٦٩، ج٢، ص ٤٣٤، ج٩، ص٥٦٧؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٦٢.

[٨] تابع هذه الفتاوى عند، الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص١٦٢، ابن عبد الرفيع، معين الحكام على القضايا والأحكام، تحقيق محمد بن قاسم بن عياد، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٩م، ج١، ص ٢٩٧، ٣٠٦؛ البرزلي، الفتاوى، ج١، ص ٢٨٧، ٤٦٩؛ القرافي، الذخيرة، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤، ج٤، ص٩، ١٣٥؛ ج١٢، ص٣٧٨؛ الرجراجي، مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح المدونة وحل مشكلاتها، تحقيق أبو الفضل الدمياطي، نشر مركز التراث الثقافي المغربي بالدار البيضاء، ودار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م، ج١، ص ٣٣٢ ، ٤١٦؛ الرعيني، المصدر السابق، ج١، ص ١٥٤، ١٧٤، ٣٠٣؛

الفرقة والخصام، والحاحه وحدة الأمة وترابط أفرادها، وسيادة روح الأخوة والتراحم والتعاطف بينهم[٢]، وسعيه الحثيث نحو فض الخلافات التي كانت تدور بين الناس على أساس ديني وصلت بهم احياناً إلى درجة الاقتتال[٣]، حتى اشتهر عنه انه كان لا يحدث بالأمور التي لا تقبلها عقول العامة [٤]، ولم يستنكر عليهم أمورا جرت بها عادتهم في الأعياد والاحتفالات رغم اندراجها عن غيره من الفقهاء في دائرة البدع [٥].ونستأنس هنا برواية تتحدث عن اشتهاره بعفة اللسان؛ ونهيه اتهام أحد من المسلمين بالفسق، وتأكيده أن من شيم الأبرار ستر المعايب وكشف المحاسن[٦].وعليه نفهم السر وراء سعيه نحو استرضاء خصمه اللدود أبي بكر الخولاني؛ حتى لا يطمع فيهما المعز بن باديس ليجد الحجة على العامة بشهادة احدهما على الآخر " إذ كانت العامة طوعهما، فلما اختبرهما في ذلك لم يجد عندهما ما يوافقه، ووجد ما بينهما امتن مما يظن"[٧].

وبالموازاة، أدرك أبو عمران – وربما بتنبيه من بغداد– ضرورة كسب السلطة الزيرية، والاستناد إليها في دعم مشروعه الإصلاحي ومجابهة الشيعة، لا سيما وان تبعية بني زيري للفاطميين كانت شكلية أكثر منها فعلية، تقتصر في اغلب الأحيان على بعض المظاهر الصورية[٨]، كما تفاعلت العائلة الزيرية مع الاتجاه السني، ولا سيما المذهب المالكي، الذي لم يكن لدى الزيريين من الدوافع ما يملى عليهم الاستمرار في مناهضة رجاله، الذين تعاظم

ج٢، ص ٦٦، ٢٧٣ ، ٤٩١؛ ج٣، ص ٢٠٦، ٣٦٧، ٤٥٤؛ ج١، ص٤٠٩؛ ج٥، ص ١٧٨؛ ج٧، ص ٥٤٣.

[١] عياض، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تقديم محمد بنشريفة، دار الغرب الإسلامي، ط ٢ ، ١٩٧٩م، ص ٢٧٥–٢٧٦؛ البرزلي، المصدر السابق، ج٢، ص٣٠٩–٣١٠؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٩٩–٣٠٠.

[٢] البرزلي، المصدر السابق، ج٣، ص ٦٥٢–٦٥٤.

[٣] عياض، مدارك، ج٢، ص ٢٨١.

[٤] ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين العمرى، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥، ج٣٨، ص٣٥١.

[٥] النفراوي، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٤٩.

[٦] الرعيني، المصدر السابق، ج٢، ص١٢٠

[٧] عياض، مدارك، ج٢، ص ٢٧٩.

[٨] الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص١٦٧.

نفوذهم، وباتوا يتمتعون بسلطة روحية مشهودة لدى الأوساط الشعبية[١]، وهو ما دفع أمراء بني زيرى إلى إكرامهم وإغداق الأموال عليهم[٢]، والاعتماد عليهم كبديل شرعي عن فقهاء الشيعة، والاستناد إليهم في تحقيق طموحاتهم الدفينة نحو الاستقلال عن الفاطميين، وهو ما يفسر غض بني زيري الطرف عن اغتيال المالكية للدعاة الشيعة بالقيروان[٣]، وتعيينهم في مناصب القضاة[٤]، ورفعهم الحظر الجزئي الذي كان مسلطاً على المذهب المالكي، حيث سمحوا بتدريسه في الأماكن العامة[٥]، كما أن باديس انتدب مجموعة من المالكية للإشراف على تربية وتعليم ولده المعز حيث" دلوه على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة والشيعة لا يعلمون بذلك"[٦]، وهو نص بالغ الدلالة على أن خطة مدروسة كان يتم تنفيذها في الخفاء بأيدي مالكية القيروان الذين كان أبو عمران في مقدمتهم.

يستشف من المصادر أن علاقة من التقارب والوفاق جمعت الفقيه أبا عمران والأمير المعز بن باديس، حيث تداخلت مصالح الطرفين –السلطوي والديني– نحو إقامة حلف مناهض للتشيع، ولا شك أن تمسك الأمير بالحزب السني، وسمو أخلاقه ، ونبل مقاصده، إلى جانب ما استأنسه فيه أبو عمران من ذب عن السنة وما تيقنه من دعمه للمذهب المالكي كان أزكى رصيد في هذا التقارب، فقد نشأ المعز في أحضان المالكية؛ وتربى على أعينهم، "وكانت أذنه "صاغية إلى مذاهب أهل السنة وربما كانت شواهدها تظهر عليه..في أول ولايته"[٧]، وكان يطالع أمهات الفقه المالكي، التي احتضنتها مكتبته الخاصة، [٨]، واكتسب بجوار ذلك صفات محمودة، أطنبت المصادر في ذكرها، فقد كان"واسطة عقد بيته"[٩] "حسن الخلق، بعيد الغور في

---

[١] عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٢٩، ٣٢٥.

[٢] ابن عذارى، المصدر السابق، ج١، ص٢٤٠.

[٣] الدباغ، المصدر السابق، ج١، ص٢٦.

[٤] الدباغ، المصدر نفسه، ج٣، ص ١٣٠؛ روجيه إدريس، المرجع السابق، ج٢، ص ١٦٦، ١٦٨.

[٥] عياض، مدارك، ج٢، ص١٦٦، ٢٢٤ ، ٢٢٦؛ الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٠ ، ١٦١، ١٦٧.

[٦] ابن عذارى، المصدر السابق، ج١، ص٢٧٣–٢٧٤.وبالموازاة فقد اشرف الباقلاني في المشرق على تربية ابن الملك البويهي عضد الدولة فناخسرو "فعلمه مذهب أهل السنة"، عياض، المدارك، ج٢، ص٢٠٨.

[٧] العبر، ج٦، ص١٣.

[٨] الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص١٨١. ومن أهمها كتب المدونة والنوادر والزيادات والموازية.

[٩] ابن خلكان، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٣٣.

الأمور"[١]" رقيق القلب خاشعا، متجنبا لسفك الدماء..حليما ...حسن الصحبة"[٢] "جليلاً عالي الهمَّة، محّباً للعلماء،جواداً ممدّحاً ،أصيلاً في الإمرة، حسن الديانة، حمل أهل مملكته على الاشتغال بمذهب مالك"[٣]".

هكذا، ترد بالمصادر[٤]عدة إشارات عن حضور أبي عمران في مجلس المعز، الذي كان يستشيره ويستفتيه بشكل خاص في عدد من المسائل الشرعية والسياسية[٥]، تقديراً منه لمكانته العلمية ورجاحة عقله، ونضع في هذا السياق تلك الرواية التي تتحدث عن انتداب الأمير الزيري لأبي عمران للإجابة على مائة سؤال من فنون العلم وجهها احد علماء الأندلس لعلماء القيروان، أجاب عنها الفقيه ببراعة تامة، دعت الفقيه الأندلسي إلى صياغة قصيدة شعرية يمدح فيها علماء القيروان وحاكم افريقية[٦]، وما إدماج المعز بن باديس في هذا المديح إلا دليل على متانة علاقته بفقهاء المالكية وعلى رأسهم الفقيه أبي عمران؛ الذي صارت به القيروان موطن العلم الصحيح.

ضنت المصادر بهذه الأسئلة المائة التي أجاب عنها أبو عمران، باستثناء سؤال واحد يحمل بين طياته بعدا سياسياً ، يتعلق بالأفضلية التي منحها الرسول –عليه السلام– لابنته فاطمة –رضي الله عنها– ومدى تفوقها على سائر نساء البيت النبوي.

على الرغم من صمت المصادر عن إجابة الفقيه على ذلك السؤال السياسي الهام، الذي يتعلق بالدولة الفاطمية الشيعية، فلا تعوز القرائن الدالة على موقف أبي عمران المتشدد تجاه الشيعة باعتباره قاعدة أساسية يقوم عليها مشروعه السياسي، فقد كان يكنى عاصمتهم

---

[١] ابن عذارى، البيان، ج١، ص ٢٩٦.

[٢] ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص٣٥٤.

[٣] العبر في خبر من غبر، سنة ٤٥٥هـ

[٤] الدباغ، ج٣، ص١٦١؛ مقديش الصفاقسي، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تونس، ١٣٢١هـ، ج١، ص١٤١.

[٥] ابن حزم، الرسائل، ج٢، ص ٨٧؛ الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص١٦١.

[٦] عياض، المدارك، ج٢، ص٣١٧، ابن عبد الملك، المصدر السابق، س١، ص ٩٤؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج١، ص ٢٥.ومن بين هذا الشعر قوله،

يامعزاً أعزّ أهل الدين وتردى بكل فضل مبين

فمن القيروان تبتغى المعاني وبها نشر كل علم مصون.

بـ"المهدومة"، عوضاً عن المهدية، معتبراً إياها "عش كفرهم ودار ضلالتهم[١]، تأييداً منه لفتوى اجمع عليها علماء القيروان بأن "حال بني عبيد، حال المرتدين والزنادقة، بما أظهروه من خلاف الشريعة، فلا يورثون بالإجماع، وحال الزنادقة بما أخفوه من التعطيل .. فيقتلون بالزندقة"[٢].كما حرصت فتاويه على مخالفة الشيعة، فقد أفتى بمنع الصلاة في المساجد التي بنيت بالمقابر[٣]، وخالف الشيعة في اعتماد طريقة الحساب في معرفة الهلال، وأفتى بأن رؤية الهلال بشاهد واحد عدل تلزم الإمام العمل على خبره. [٤] ، ولذلك فقد كان من جملة المالكية الذين نالهم أذى الحزب الشيعي من قبل، وهو ما أكده الناصري[٥]بقوله"وكان فقهاء المالكية في ذلك العصر معهم في محنة عظيمة منهم ابن أبي زيد والقابسي وأبو عمران الفاسي وطبقتهم"، دون أن يحدد مظاهر هذه المحنة التي نالت الفقيه الفاسي.

مخالفة للشيعة، ، تبنى أبو عمران الرؤية السنية الأشعرية التي ترفض النص شرطاً للإمامة؛ وتؤكد على أن الاختيار والنص هما طريق التعيين، وقام بتفنيد ما اعتمده الشيعة من تأويل بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بحجج منطقية[٦].ويبدو أنه كان يجاهر بتلك المواقف في دروسه العامة، حتى أن المعز بن باديس، دس له في إحدى هذه الدروس من يستفتيه في حكم الصلاة في الطرز التي تحمل أسماء بني عبيد، فأفتى بتحميل ولي الأمر مسئولية ذلك وأوجبه بضرورة منعه[٧].

انطلاقاً من رؤية أشعرية تحض على ضرورة نصيحة الحاكم، وحرصاً منه على بتر التبعية الزيرية للفاطميين ولو بصورتها الشكلية، استغل أبو عمران لقاءجمعه بالأمير المعز بن

---

[١] عياض ، المدارك، ج٢، ص ٢٧.

[٢] عياض ، المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٢.

[٣] الرعيني، المصدر السابق، ج٣، ص٥٤.

[٤] المواق، التاج والإكليل لمختصر خليل، دار الكتب العلمية، ط١ ١٩٩٤م، ج٣، ص٢٨٢.

[٥] المصدر السابق، ج١، ص١٩٤.

[٦] انظر نموذجاً لذلك عند ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٨، ص ٣٥١.وعن رؤية الأشاعرة لمسألة الإمامة تابع، الباقلانى، كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق احمد عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٧، ص ٤٧١-٤٧٢؛ الجوينى، كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في الاعتقاد، تحقيق اسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٥، ص٢٥٣.

[٧] الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٧.

باديس ووجه له سؤالاً استنكارياً حول علة إبقائه على أسماء بني عبيد على السكة والبنود، فسعى الأمير إلى تطيب خاطره؛ واحتج بخوفه على الحجاج المغاربة الواردين على مصر من أذى الفاطميين" إما بقتل، أو اخذ مال، أو منع الطريق، أو غير ذلك"[١]

تدفع المعطيات الأنفة إلى الظن بأن الإجراءات التي اتخذها المعز بن باديس في اتجاه إحداث المقاطعة الكبرى مع الفاطميين كان لأبي عمران دور فيها، وإن لم تفصح عنها المصادر بشكل مباشر[٢]، فقد دعم الأمير المذهب المالكي بشكل قوى حتى أنه حمل الناس على اعتناقه[٣]، و قابل الرسالة التهديدية التي أرسلها له الوزير الفاطمي الجرجرائي بلهجة اشد وطئاً ، وتعرض فيها بالتهجم على شرعية الخلفاء الفاطميين[٤]، كما خاطب الحاكم بالله الفاطمي برسالة شديدة اللهجة أنكر عليه فيها أعماله الجنونية، فأجابه الأخير برسالة استرضاء طلب منه فيها إرسال فقيهين لتدريس المذهب المالكي بالقاهرة[٥]، وكانت تلك الإجراءات موضع إعجاب وتبجيل من شعراء العصر الذين أشادوا بها وبالمعز فاعلها[٦].

دعماً منه للمعز بن باديس في مساعيه الدبلوماسية الممهدة لإحداث القطيعة مع الفاطميين، بتقربه من أعدائهم الألداء البيزنطيين والأندلسيين، أصدر أبو عمران فتوى تجيز للحاكم عقد هدنة مع الأعداء إن رأى في ذلك مصلحة ونفعاً [٧]– ويبدو أنها تزامنت مع وصول هدية سنية من الإمبراطور البيزنطي إلى المعز عام ٤٢٦هـ/١٠٣٤م سعياً للمهادنة والصلح[٨]– كما كان ضمن الوفد الذي انتدبه المعز بن باديس لاستقبال سفارة أمير دانية مجاهد العامري.[٩]

---

[١] الصفاقسي، المصدر السابق، ج١، ص ٣٦٨.

[٢] انظر مثلاً كيف علق ابن عذارى على دوافع تقتيل المعز للشيعة بقوله " وتأويل ذلك وغيره ألفينا هنا عن ذكره"، البيان، ج١، ص ٢٧٤.

[٣] ابن خلكان، المصدر السابق، ج٥، ص٢٣٤.

[٤] ابن خلدون، العبر، ج٦، ص١٥٩.

[٥] الذهبي، السير، ج١٥، ص١٧٥؛ أبو المحاسن، المصدر السابق، ج٤، ص١٧٨.

[٦] ابن عذارى، المصدر السابق، ج١، ص ٢٧٤.

[٧] القرافي، الذخيرة، ج٣، ص٤٤٩ .

[٨] ابن عذارى، المصدر السابق، ج١، ص ٢٧٥.

[٩] عياض، المدارك، ج٢، ص ٣١٧؛ ابن عبد الملك، المصدر السابق، س١، ص٩٤؛ ابن الأبار، المصدر السابق، ج١، ص ترجمة ٥٥.

وفي إطار تحقيق مكسب سياسي باستقطاب الأمير الزيري وكسبه في صف المعسكر السنى لمواجهة معسكر الشيعة، انحازت بعض فتاوى أبي عمران لجانب السلطة، فقد أفتى بجواز فرض المكوس على الرعية[١]، وكراهة التهرب من دفعها[٢]، وأجاز شهادة جامعي الضرائب باسم السلطان[٣]، وأفتى بطاعة الحاكم فيما أمر[٤]، وبكراهة الخروج على الإمام المكروه من الجماعة أو عزله لأي غرض دنيوي[٥]، كما أفتى بجواز التعامل بالدراهم الزائفة[٦] ، مبرراً للسلطة قيامها بغش العملة[٧]؛ ومعتبراً إياها ضرورة اقتصادية، وأجاز للإمام عدم الاختلاط بالناس في صلاة الجماعة، مبرراً بذلك للمعز اتخاذه ديوان خاص لهذا الغرض[٨]، كما أوجد له أرضية شرعية تبرر عقده معاهدات مع القوى النصرانية وقبول هداياهم[٩].

غنية هذه الفتاوى عن التأكيد على دلالتها التبريرية وصيغتها الأشعرية، والتي جسد من خلالها أبو عمران رؤية الأشعري التي أكد فيها جواز صلاة العيد والجمعة خلف كل بر

---

[١] البرزلي، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٧.

[٢] البرزلى، المصدر نفسه، ج٤، ص٢٧٢، ج١٠، ص٤٠٨.وبذلك خالف أبو عمران فتوى أئمة مالكية معتبرين ذهبوا إلى جواز أن يتحايل ذلك الشخص في إسقاط تلك المظالم عن نفسه.الداودي، كتاب الأموال، تحقيق رضا شحاده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ٢٠٠٨م، ص ١٧٩.

[٣] البرزلى، المصدر السابقج١، ص ٤٦٩.

[٤] ابن الشماع الهنتاتي، مطالع التمام ونصائح الأنام ومنجاة الخواص والعوام في القول بإباحة إغرام ذوي الجنايات والإجرام زيادة على ما شرع الله من الحدود والأحكام، تحقيق عبد الخالق احمدون، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ٢٠٠٣م، ص١٥٠.

[٥] البرزلى، المصدر السابق، ج٤، ص١٠؛ الحطاب الرعينى، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣١.

[٦] الرعيني، المصدر السابق، ج٦، ص ٤٨٢، ج٧، ص ٢٧١.

[٧] عن مشاركة السلطة الزيرية في ضرب المسكوكات المغشوشة انظر، الونشريسي، المصدر السابق، ج٦، ص ٧٤، ٣٠٥ ، ٣١٢، ٣١٣.

الرعيني، المصدر السابق، ج٢، ص٤٥٣.وهو ما أفتى به أستاذه الأصيلي لابن أبي عامر في الأندلس، عياض، المدارك، ج٢، ص ٢٤٣.

[٩] القرافي، االمصدر السابق، ج٣، ص٤٤٩.

وفاجر، والدعاء لائمة المسلمين بالصلاح، وأن لا يخرجوا عليهم بالسيف، وأن لا يقاتلوا في الفتنة، ويرون النصيحة لجماعة المسلمين[١].

ينفرد ابن حزم [٢]برواية تتحدث عن موقف سياسي بارز للفقيه أبي عمران تجاه الأمير المعز بن باديس، الذي أغراه موقفه المتصلب تجاه الشيعة، وما صاحبه من حشد شعبي ومباركة مالكية، ودفعه نحو محاولة إعلان نفسه خليفة، فاستشار أبا عمران قبل إقدامه عليها، فأجابه قائلاً، "إن النص لم يجّوز الخلافة إلا في قريش.. إنك إنما تريد بهذا الشقاق والارتفاع عن المسالمة، وهذا لا يتم لك، لأنك إذا فتحت هذا الباب تسمى بها كل من أردت التفوق عليه من مصاقبيك وغيرهم، فبطل ما اختصصت به،وهان هذا الأمر ولم تفقد شيئاً، فسمع المعز له، وترك ما أراد

يحمل هذا النص بين طياته عدة دلالات،

أولا، أدراك الفقيه المالكي حجم التبعات الملقاة على عاتقه، واستثماره وجوده ضمن حاشية الأمير الزيرى في تأسيس أرضية ثابتة تحكم علاقة فقهاء المالكية بالسلطة الزيرية، تقوم على مبدأ التعاون مع السلطة، مع الحرص في الوقت ذاته على إبقاء مسافة فاصلة بينهما، من شأنها أن تتيح له مراقبة سياسة السلطة، وإبداء تحرزاته وانتقاداته حيالها، وتضمن له في الوقت ذاته حضوره الفاعل وسط الجماهير، ونضع في هذا الإطار تلك الرواية التي تتحدث عن استنكاره على الأمير ابن باديس اتخاذه بطانة من اليهود، كما أمر بصبغ طرف عمامة طبيبه الخاص[٣].

ثانيا، تجلي أشعرية أبى عمران في أسلوب الإجابة المعتمد على الخطاب العقلاني المستند إلى النص؛ أو الأخذ بمنهج الاستدلال لبرهنة صدق المقولات الدينية[٤]، وهو ما يمثل مرحلة

---

[١] الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق نعيم زرزور، المكتبة العصرية، القاهرة، ط١ ٢٠٠٥م، ج١، ص ٢٢٨.

[٢] ابن حزم، الرسائل، ج٢، ص ٨٧.

[٣] الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص١٦١.

[٤] ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص٣٣.

النضج للمذهب الأشعري الذي ساهم فيه تلامذة أبى الحسن الأشعري وعلى رأسهم الباقلانى[١]، فضلاً عن اخذ أبى عمران بمبدأ أساس في الفكر الأشعري وهو دعم الخلافة العباسية؛ باعتبارها الخلافة الشرعية؛ والدفاع عنها ونبذ ما دونها، وهى المهمة التي تحملها الفقيه في بغداد، وصار ملزماً بالوفاء بها.

كما يكشف النص عن تمسك أبي عمران بثابت آخر من ثوابت الأشاعرة في مسالة الإمامة –والذي خالفوا فيه بعض المتكلمة– وهى" القرشية"، والتي كان من الممكن أن تدخل في محل الاجتهاد، لولا أنهم استندوا إلى الإجماع في إثبات هذا الشرط، نظراً لان الأحاديث الواردة فيه لا ترقى إلى درجة اليقين لاندراجها في أحاديث الآحاد، فضلاً عن إمكانية تأويلها، ناهيك عما ترتب على هذا الشرط من إخلال وهدم لشروط الكفاية وتناقضه أحيانا مع شرطي العلم والدين[٢].

ثالثاً، إحاطة أبي عمران بأحداث عصره وإدراكه لحركة التاريخ وما يتحكم فيها من قوانين، فقد طرق ذلك الباب من قبل القائد البويهي عضد الدولة فناخسرو؛ الذي ألح على تسمية نفسه بالخلافة، بمباركة من الفقيه المتكلم الحسين بن على البصري الذي كتب له مؤلفاً جمع بين دفتيه قرائن في تخوله هذا الأمر في غير قريش، مما تسبب في إحداث ثورة عارمة وفتنة هوجاء بين أهل خراسان؛ كادت أن تعصف به[٣]وهو ما كان حاضراً في مخيلة أبى عمران وهو يحذر الأمير الزيري من مغبة "الشقاق والارتفاع عن المسالمة"[٤].

رابعا، يؤكد النص على رفعة مكانة أبي عمران عند الأمير الزيزي المعز بن باديس، والتي جعلت منه ليس فقط مرجعية فقهية بل رفعته إلى درجة المستشار السياسي في مسائل تعد مصيرية، كان الأمير ينزل فيها إلى رأى أبي عمران كما يظهر من العبارة الواردة في النص ، "

---

[١] النباهي، المصدر السابق، ص٣٧، ابن عساكر، تبيين كذب المفتري، ص٢١٧؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣، ص ٣٤.وقد قسم الباقلاني الدليل إلى ثلاثة أنواع ، الدليل العقلي والدليل السمعي والنقلي والدليل اللغوي.انظر كتابه الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق محمد زاهد الكوثري، طبعة مؤسسة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٣٨٢ هـ، ص ١٥.

[٢] انظر تفصيلا لموقف الأشاعرة من هذا الشرط عند الباقلانى، التمهيد، ص ٤٧١–٤٧٢؛ الجوينى ، الإرشاد، ص٣٥٩؛ ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص ٣٣٦ .

[٣] ابن حزم، الرسائل، ج٢، ص٨٦.

[٤] ابن حزم ، نفسه، ج٢، ص ٨٧.

فسمع المعز له، وترك ما أراد"، فهل يمكن الاستناد إلى ذلك للقول بدور فاعل لأبى عمران في تهيئة المعز بن باديس لإحداث القطيعة الكبرى مع الفاطميين والدعوة للخلافة العباسية، وهو القرار الذي اتخذه المعز، ولم يمهل القدر أبا عمران لمعايشته؟[١]

رغم المبادرات الهامة التي قام بها المعز بن باديس لتدعيم المذهب السني المالكي ومواجهة الفاطميين الشيعة، وظهور إرهاصات تنبئ برغبته في إعلان القطيعة عنهم، إلا أن مجموعة من العقبات واجهت سلطة هذا الأمير، وأضعفت من قوته؛ وشتت جهوده في أكثر من جبهة، وأقنعت أبا عمران بعدم قدرة السلطة الزيرية على تبني مشروعه السياسي الضخم، بإقامة دولة قوية موحدة قادرة على لم شتات الغرب الإسلامي المتمزق، فقد تعرضت دولة المعز لغارات شرسة من قبل زناتة تكررت أعوام ٤١٥هـ، ٤٢٠هـ، ٤٢٧هـ، ٤٢٨هـ، هددت حاضرة دولته وتسببت في إحداث الاضطرابات والقلاقل في البلاد[٢]، وفي عام ٤١٣ هـ أعلن حاكم طرابلس الثورة على المعز وتعاهد مع زناتة وأدخلهم المدينة فعاثوا فيها نهبا وقتلا[٣]، وفي عام ٤٢٣هـ ثارت ضده منطقة نفطة وأعلنت الاستقلال[٤]، كما توالت ضده انشقاقات بني حماد مما اجبره على التنازل لهم عن المغرب الأوسط[٥]

في الوقت الذي أدرك فيه أبو عمران عجز الأمير الزيري عن القيام بمشروعه الطموح[٦]، بدأت تلوح أمامه قوة أخرى فتية، كانت مؤهلة لتنفيذ مشروعه السياسي والوصول

---

[١] أكد ابن عذارى انه في عام ٤٤٠هـ "قطعت الخطبة لصاحب مصر وأحرقت بنوده... وأمر المعز بن باديس بان يدعى على منابر افريقية للعباس بن عبد المطلب، ويقطع دعوة الشيعة العبيديين..ولما كان عيد الأضحى أمر الخطيب أن يسب بني عبيد"، ابن عذارى، المصدر السابق، ج١، ص ٢٧٧.وقد أتى هذا الحدث بعد وفاة أبي عمران الذي أجمعت جل المصادر على تحديد سنة ٤٣٠هـ بعام وفاته.

[٢] ابن عذارى، المصدر السابق، ج١، ص ٢٧٠، ٢٧٤.

[٣] ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص ١٣٨.

[٤] ابن الأثير، المصدر نفسه، ج٨، ص ٢٠٥.

[٥] ابن الأثير ، المصدر نفسه، ج٧، ص ٤٨٥؛ ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص٩٠؛ العبر، ج٦، ص ١٥٨.

[٦] يمكن أن نضيف للمسالة بعدا تنجيمياً استناداً إلى ما حُكي عن رجل يدعى عبد الكافي بن سليمان، عاصر هزيمة المعز بن باديس أمام الأعراب حيث قال ، "كنا عند ابن محرز حين وصل الخبر بكسر المعز وأخذ أمه وأخيهن فقام عنا في الحال فأخرج ملحمة فيها جميع ما جرى في هذه القضية، فعجبنا من ذلك، ثم ذكر أنه سأل عن ذلك الشيخ أبا عمران فأجاب بما يقال في ذلك، ومنه التنجيم" ابن الأزرق، المصدر السابق، ص ١٥١.

بـه إلـى مراميـه النهائيـة؛ وترجمتـه لواقـع سياسـي – عسـكري علـى ارض المغـرب، ونقصـد بهـا صنهاجة الجنوب، وذلك من خلال لقائه الشهير بالأمير الجدالي يحيي بن إبراهيم، الذي عرج في طريق عودته من الحج عام ٤٢٧هـ على القيروان، والتقي أبا عمران، ووضعا سوياً الخطوط الكبرى لقيام دولة المرابطين[١].

لقد تماست طموحات الرجلين خلال هذا اللقاء في نقطة مشتركة تطمح نحو تأسيس دولة قوية تتبنى المذهب السني وتعمل على ترسيخ جذوره، وتقوم على أساس الحق ومجابهة الظلم ورد المظالم والتصدي للتيار الشيعي ومقاومة الحركات البدعية، وانتشال الغرب الإسلامي من حالة الفرقة والتشرذم، من خلال التمهيد لقيام دولة كبرى قادرة على ملا فراغه السياسي.

وأدرك الطرفان –بما لهما من رصيد سياسي– أن نجاح هذه الخطوة يحتاج إلى قواعد ثلاث تقوم عليها الدول وتتأسس بها الممالك، وهي، الدعوة الدينية والعصبية والثروة، تلك التي حددها الماوردي[٢]في قوله، " فأما تأسيس الملك فيكون في تثبيت أوائله ومباديه، وإرساء قواعده ومبانيه، وتنقسم ثلاثة أقسام، تأسيس دين، وتأسيس قوة، وتأسيس مال".

أما عن القسم الأول وهو الدين– أو ما عبر عنه ابن خلدون[٣] " بالدعوة الدينية" – فقد كان مطلباً رئيساً للأمير يحيي بن إبراهيم الجدالي، الذي آلت إليه رئاسة صنهاجة اللثام بعد استشهاد صهره ابن تيفاوت اللمتوني[٤] في إحدى غزواته ضد قبائل السودان الوثنية[٥]، وكان

---

[١] يرجى مراجعة الدراسة الجادة للباحث المغربي إبراهيم القادري، " خبايا رحلة يحيي بن إبراهيم الجدالي إلى الحج (حوالي ٤٢٧هـ) دراسة في مكونات الصلة بين الرحلات الحجية والدعوات السياسية"، ضمن كتابه تاريخ الغرب الإسلامي: قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١ ، ١٩٩٤م، ص ٥٤–٦٢.

[٢] المصدر السابق، ص١٥٣.

[٣] المقدمة، ج١، ص ٢٦٧.

[٤] يبدو أن هذا الأمير كان أول من فكر في أهمية الاتصال بمالكية المغرب في سبيل إقامة دولته، ولعله اتصل بالشيخ القابسي(الذي كان على دراية بأحوال بلاد السودان وطبيعة أهلها، انظر الونشريسي، المصدر السابق، ج٩، ص١١٦، ج١٠، ١٣٥) أثناء رحلة حجه التي توفي بعدها في واحدة من مغامراته العسكرية لنشر الإسلام في الصحراء، وانه أوصى خليفته يحيي بن إبراهيم الجدالي بضرورة العمل على دعم مالكية القيروان لإتمام الزحف الصنهاجي غرباً وشمالاً .

[٥] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٢٢؛ الناصري، المصدر السابق، ج٢، ص٥،
Terrasse, H., *Histoire du Maroc*, I, Casablanca, 1949, p.213.

يطمح نحو تأسيس دولة كبرى تسيطر على بلاد المغرب، وأدرك أن أنجع الأساليب الكفيلة بإقامتها يكمن في استناد عصبية صنهاجة إلى دعوة دينية قادرة على لم شتات العصبية، والتمهيد لقيام الدولة، وهي قاعدة قامت على أساسها دويلات مغربية عدة خلال هذه الفترة؛ فضلاً عن قناعته بان فشل الأحلاف التي سبقته بين قبائل صنهاجة يرجع في الأساس إلى تركيزها على أهداف مادية صرفة، وتهميشها للأبعاد الروحية، التي تتآلف وتتآزر حولها العصبية[١]، فضلا عن أن أشياخ القبائل الموجودة بالمنطقة قد رفض الواحد منهم أن " ينقاد إلى حكم أحد من غير قبيله"[٢]، مما يزيد من أهمية الدين في تطويع هذه القبائل، حيث شاع خلال تلك الفترة أن الملك إذا تأسس على الدين"أذعنت النفوس لطاعته، واشتدت في مؤازرته ونصرته، ..فملك القلوب والأجساد، واستخلص الأعوان والأجناد"[٣]، ولعل في إلحاح الأمير الجدالي على أبي عمران في أن يرسل معه "من يثق بعلمه ودينه، ليعلمهم ويقيم أحكام الشريعة عندهم" [٤] "ويدعوهم إلى الكتاب والسنة، ويعلمهم شرائع الإسلام"[٥] واقعاً يؤكد إدراكه للأهمية القصوى لهذا البعد الديني في تأسيس الدولة المنشودة.

وعليه، فلا يمكن الاعتقاد بان عروج الأمير الجدالي على القيروان في طريق عودته من رحلة الحج كان أمراً اعتباطياً ، أو صدفة جادت بها الأقدار حسب تعبير البعض[٦]، ، فإذا ما نحينا جانباً احتمالية لقاءٍ سابق جمع الرجلين في مكة؛ وأنهما واصلا سوياً الطريق إلى القيروان، وذلك لغياب المادة المصدرية[٧]، فان الأمير الجدالي قد وجد في شخص أبي عمران الداعية القادر على تكريس المالكية لخدمة أهدافه السياسية، ففضلاً عن أن هذا الفقيه قد ذاع صيته في

---

[١] حيث كان الهدف الأساس لهذه التحالفات هو فرض الإتاوات على القوافل؛ ومدافعة مملكة غانة؛ ومحاولة السيطرة على منافذ وطرق تجارة العبور.انظر ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٧–٩٨؛ البكري، المصدر السابق، ص ١٦٤؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٢١.

[٢] ابن عذارى، المصدر السابق، ج٤، ص ١٠.

[٣] الماوردي، المصدر السابق، ص ١٥٥.

[٤] البكري، المصدر السابق، ص ١٦٥.

[٥] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٢٢.

[٦] محمد عثمان المراكشي، الأول من الجامعة اليوسفية بمراكش في تسعمائة سنة، الرباط، ١٩٣٧، ص١٧.

[٧] تردد أبو عمران على المشرق الإسلامي بشكل لافت خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته.ابن عذارى، المصدر السابق، ج١، ص٢٧٥؛ الدباغ، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٣.

الغرب الإسلامي –بما في ذلك صحراء الملثمين –، باعتباره "إمام وقته"[١]، و"عالم المغرب"[٢]، و"شيخ المالكية في زمانه"[٣]، الذي "اشتهر ذكره وانتشر علمه" [٤]، فإن دوره كرجل إصلاحي يجابه الظلم والفساد قد شاع وفشا في مضارب صنهاجة، ونستأنس هنا برواية ابن الأحمر[٥] التي تؤكد أن الأمير الجدالي وأصحابه قد عرجوا على القيروان " يتبركون بالعلامة أبى عمران الفاسي، حيث بلغهم أن أهل فاس أخرجوه من مدينة فاس لنهيه لهم عما أحدثوه من البدع والمظالم والمغارم وأخذهم أموال الناس بغير حق".

وفي المقابل، فطن أبو عمران لأهمية العصبية والثروة في نجاح مشروعه السياسي وقيام دولته المنشودة، لأنه لا ينتدب للملك إلا "أولو القوة، و..ذو القدرة... وهذا إنما يتم لجيش قد اجتمعت فيه ثلاث خلال، كثرة العدد، وظهور الشجاعة، وتفويض الأمر إلى مقدم عليهم إما لنسب وأبوة، وإما لفضل رأي وشجاعة"[٦]، أما المال فإنه إذا كثر رفع الهمة، واحدث "طمعاً في الملك وقل أن يكون هذا الأمر إلا فيمن له بالسلطة اختلاط وبأعوان الملك امتزاج فيبعث مطامع الراغبين فيه على طاعته وتسليم الأمر إلى زعامته"[٧].

أدرك أبو عمران –بما له من حس سياسي ودراية بقبائل المنطقة– أن صنهاجة اللثام تمثل القوة العسكرية والمادية التي يمكن الارتكان إليها في تنفيذ مشروع إقامة الدولة السنية المالكية في المنطقة، فقد اشتهرت هذه القبائل بكثرة العدد[٨] وكان" فيهم من الجلد والقوة ما ليس لغيرهم، ولهم ملك يملكهم ويدبرهم، تكبره صنهاجة وسائر أهل تلك الديار، ...وفيهم البسالة والجرأة والفروسية..والشدة" [٩] " يختارون الموت على الانهزام، ولا يحفظ لهم فرار في زحف"[١].

---

[١] الضبي، المصدر السابق، ص٦٠٦؛ الحميدي، المصدر السابق، ص ٥٣٨.

[٢] الذهبي، الحفاظ، ج٣، ص١٠٩٧؛ عياض، مدارك، ج٢، ص٢٨٠.

[٣] أبو المحاسن، المصدر السابق، ج٥، ص٧٧؛ الذهبي، طبقات المحدثين، ص ٣٤.

[٤] الضبي، المصدر السابق، ص ٦٠٧.

[٥] المصدر السابق، ص ٢٧–٢٨.

[٦] الماوردى، المصدر السابق، ص١٥٥.

[٧] الماوردى، المصدر نفسه، ص ١٥٦.

[٨] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٢٠؛ الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، ١٩٢٣م ص٢٣٩؛ ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ٢٠٣.

[٩] ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٨.

ورغبة منه في التأكد من قوة عصبية صنهاجة وخلو حقلها من الدوائر المذهبية والنزعات المناوئة للمذهب المالكي فانه استفسر الأمير الجدالي عن قومه وما "ينتحلونه من المذاهب"[٢] ، فلما اطمئن إلى ذلك صرح أن الأمير الصحراوي مع تواضع معارفه الشرعية كان "صحيح النية واليقين " [٣]

أما الثروة؛ فقد كانت صنهاجة اللثام من اغني قبائل البربر"وأكثرهم مالا"[٤]، اشتهر أهلها بأنهم"أرباب نعم جزلة وأموال جليلة"[٥]، حتى أصبح "سائر أرباب المدن دونهم في اليسار وسعة الحال"[٦]، وهي مقومات فطن أبو عمران لأهميتها بعد أن اخبره الأمير الجدالي عن "نسبه "[٧]و"قبيلته ووطنه، فذكر له انه من الصحراء من قبيلة جدلة إحدى قبايل صنهاجة" [٨]، واعلمه " بسعة بلاده وما فيها من الخلق"[٩].

يُفهم من بعض النصوص أن الفقيه المالكي وضع مع الزعيم البربري الخطوط الأولى لقيام دولة صحراوية على أسس دينية صحيحة، هدفها الأبرز القضاء على الفوضى السياسية والدينية التي كان يتخبط فيها المغرب منذ سنوات عدة، فحين اجتمع أبو عمران مع يحيي بن إبراهيم " ندبه إلى قتال برغواطة، وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم، واستنزال رؤسائهم من الولاية، فوعده يحيي بالنهوض إلى ذلك"، ولعله هو المعنى المقصود في رواية البكري[١٠]التي ذكرت أن أبا عمران حث الأمير الجدالي على " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، وهو ما عبر عنه ابن خلدون [١١]بقوله "وما شافههم به من فروض أعيانهم".

---

[١] البكري، المصدر السابق ، ص ١٦٦.

[٢] البكري، المصدر نفسه، ص ١٦٥.

[٣] نفسه.

[٤] ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٧.

[٥] البكري، المصدر السابق، ص ١٥٨.

[٦] ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٦.

[٧] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٢٢.

[٨] مجهول، الحلل الموشية، ص ١٩؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج٤، ص٧.

[٩] ابن ابي زرع، المصدر السابق، ص١٢٢.

[١٠] البكري، المصدر السابق ، ص ١٦٥..

[١١] العبر، ج٦، ص١٨٢.

تجلت عبقرية أبي عمران في اختيار الشخص المناسب للقيام بهذه المهمة ، حيث عدل عن طلبته القيروانيين[١]، وفضل تكليف شخص آخر أقرب إلى حقل التغيير، وأدرى ببيئة صنهاجة، وأعرف بلسانهم، فكان اختياره لتلميذه وجاج بن زللو اللمطي، الذي كان قد تلقى – من قبل– العلم على أبي عمران في القيروان ثم السوس الأقصى، وكان "فقيهاً حاذقاً تقياً ورعاً ...له تلاميذ جمة يقرءون عليه العلم"[٢]، قد اتخذ داراً للعلم تسمى "دار المرابطين" [٣]، كانت من المناطق التي ظلت تمثل المجال الرعوي المفضل لبعض قبائل صنهاجة الصحراء قبل أن يزعجها عنه الزناتيون[٤].

ترك الأمير الجدالي القيروان مولياً وجهه شطر بلاد السوس ، حاملاً معه رسالة الفقيه أبي عمران إلى تلميذه وجاج بن زللو، الذي أحسن قراءة ما بين سطورها من أبعاد، فجاء اختياره لتلميذه عبدالله بن ياسين تنفيذاً لوصية أبي عمران الذي ألح عليه في الرسالة أن يختار للمهمة من يثق "**بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته**"[٥]، وكان عبدالله بن ياسين أهلاً لهذا الاختيار، حيث نجح في تحقيق المشروع الذي تبلور في ذهن المفكر الأول في تأسيس دولة المرابطين "أبو عمران الفاسي".[٦]

صفوة القول، إن الاستقصاء الواسع النطاق لشتى أنواع المصادر، كشف عن الشخصية السياسية للفقيه أبي عمران الفاسي، والتي تضافرت عوامل عدة في سبيل تشكيلها، تجلت في تكوين الفقيه العلمي وموسوعيته المعرفية، وتبنيه الفكر الأشعري، واحتكاكه المباشر بعلماء مشارقة ومغاربة لعبوا دوراً سياسياً لا يستهان به، ناهيك عن إحاطته الدقيقة بظروف عصره ومجرياته السياسية، والتي كانت خير منبه لحسه السياسي.

---

[١] ورد على لسان أبي عمران حين طلب منه الأمير إرسال فقيه لهدف التعليم " إني قد عدمت بالقيروان بغيتكم، وأما بملكوس ففيهاحاذقاً ورعاً قد لقيني..يقال له وجاح بن زلوي".انظر، البكري، المصدر السابق، ص ١٦٥.

[٢] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٢٣.

[٣] التادلي، المصدر السابق، ص ٨٩.

[٤] ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص ٢٥٧؛ العبر، ج٦، ص ٦٩.

[٥] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٢٣.

[٦] انظر بهذا الخصوص،

Norris, T., "New Evidence on the Life of 'Abdullāh B. Yāsīn and the Origins of the Almoravid Movement", *The Journal of African History*, 12 (1971), pp.255-268.

ومن حصاد التحليل تبين أن المسيرة السياسية لأبي عمران تجلت منذ فترة مبكرة في موطن رأسه مدينة فاس التي تم طرده منها على يد حكامها بمباركة فقهاء السلطة التقليديين، لتصديه لهم ولما ارتكبوه من مظاهر الظلم والطغيان، فكان اختياره لمدينة القيروان، التي لم يكن اختياره لها أمراً اعتباطياً ، وهناك ذاعت شهرته العلمية، وطارت فتاويه الفقهية، وتعددت مواقفه السياسية، ومبادراته الإصلاحية،وجعلت منه زعيماً شعبياً التفت حوله العامة، وكانت طوع يده، مما لفت إليه أنظار المعسكر السني لا سيما في بغداد، ليتم الاعتماد عليه في تنفيذ خطة محكمة تهدف نحو تطويق المعسكر الشيعي من الشرق والغرب، والاستناد قدر المستطاع على السلطة الزيرية، التي سعى أبو عمران على توثيق علاقته بأفرادها.

كما اتضح أن عروج الأمير الجدالي يحيي بن إبراهيم على القيروان عام ٤٢٧هـ ولقائه بابي عمران لم يكن أمراً عفوياً ، أو فكرة عارضة،بل كان هدفاً سياسياً لكلا الطرفين، يطمح نحو التعاون من اجل إقامة دولة سنية مالكية تجمع شتات الغرب الإسلامي وتنتشله من حالة الفرقة والتشرذم، فكان مشروع تأسيس دولة المرابطين، التي قامت على أساس الحق ومجابهة الظلم ورد المظالم والتصدي للتيار الشيعي ومقاومة الحركات البدعية.

ولكن هل التزم فقهاء الدولة المرابطية وحكامها بتعاليم الفقيه أبي عمران وبتلك الشعارات التي تم رفعها بغية جمع الأنصار وحشد الأعوان؟ نترك الإجابة عن هذا السؤال لدراسات أكثر تفصيلاً .

المصادر والمراجع

أ-المصادر المخطوطة والمطبوعة

- ابـن الأبـار (أبـو عبـد الله محمـد بـن عبـد الله بـن أبـى بكـر القضـاعى، ت٦٥٨ هـ/١٢٦٠م)، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، لبنان، ١٩٩٥.
- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، تحقيق عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م .
- ابـن الأزرق (أبـى عبـد الله محمـد بـن علـى بـن الاصـبحى الغرنـاطى، ت٨٩٦ هـ/١٤٦٤م، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق سامي النشار، ط وزارة الأعلام، العراق، د.ت.
- الأزمـوري (أبـو عبـدا لله محمـد بـن عبـدا لله، ت ٧٣١هـ/١٣٣٠م)، بهجـة النـاظرين وانس العارفين، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ٤٣٧، تاريخ.
- الأشـعري(أبـو الحسـن علـي بـن إسـماعيل بـن إسـحاق بـن سـالم بـن إسـماعيل، ت٣٢٤هـ/٩٣٦م)، مقـالات الإسـلاميين واخـتلاف المصـلين، تحقيـق نعـيم زرزور، المكتبة العصرية، القاهرة، ط١ ٢٠٠٥م.

- الباقلاني (القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، المالكي، ت ٤٠٣هـ/١٠١٣م)، تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، تحقيق محمود الخضيرى ومحمد أبو ريدة، دار الفكر العربي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٩٥هـ.وطبعة اخرى، تحقيق احمد عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٧.
- الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق محمد زاهد الكوثري، طبعة مؤسسة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٣٨٢ هـ.
- البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ط١ ٢٠٠٢م.
- ابن بسام (أبو الحسن على بن بسام الشنترينى، ت ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ج١ ١٩٨١.
- ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى الأنصاري، ت٥٧٨هـ/١١٨٢م)، الصلة، تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري–دار الكتاب اللبناني، ط١ ١٩٨٩هـ.
- البكرى(أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب، ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، المغرب في ذكر افريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، (د.ت).
- البلوى(أبو عبد الله محمد بن احمد اللخمي، ت٥٧٧هـ /١١٨١م)، العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ١٥٤ بعثة المعهد الأولى إلى المغرب.
- التادلي(أبو يعقوب يوسف بن يحيى ابن الزيات، ت أوائل ق٧هـ / ١٣م)، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق احمد التوفيق، الدار البيضاء ١٩٨٤.
- التادلي، المعزى في مناقب أبي يعزي، مخطوط بالهيئة العامة للكتاب، تحت رقم ١٢٤٩ تاريخ تيمور، ميكروفيلم ٢٢٧٧٠٣.
- التميمى (أبو عبدالله محمد قاسم بن بن عبد الكريم، ت ٦٠٣هـ/١٢٠٦م)، المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط١، تطوان، الرباط ٢٠٠٢ م.

- التهانوى (محمد بن علي بن القاضي محمد حامد الفاروقي ، ت ١١٥٨\١٧٤٥)، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧.
- ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله، تقي الدين أبو العباس النميري العامري، ت٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الرباط، مكتبة المعارف، (د.ت)، ج٢٠.
- ابن تيمية، درء التعارض بين العقل و النقل، تحقيق محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط٢ ١٩٩١م.
- ابن تيمية، نقض تأسيس الجهمية، تحقيق محمد بن قاسم، مكة المكرمة، مطبعة الحكومة، ط١ ١٣٩١هـ.
- ابن الجزري(محمد بن محمد بن علي بن يوسف العمري الشيرازي ، ت٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م.
- الجودي القيرواني (محمد بن صالح الجودي التميمي القيرواني، ت ١٣٦٢هـ)، تاريخ قضاة القيروان، نشر وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب، د. ت.
- ابن الجوزي (عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى، ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٩٩٢م.
- الجوينى (عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد الله بن حيوه، ت٤٨٧هـ/١١٨٥م)، غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق ودراسة مصطفى حلمي وفؤاد عبد المنعم، دار الدعوة للطبع والنشر، الإسكندرية، (د.ت).
- الجوينى، كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في الاعتقاد، تحقيق اسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٥.
- ابن حزم (أبو محمد على بن احمد بن سعيد، ت ٤٥٦ هـ/١٠٦٣م)، رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، تحقيق إحسان عباس، لمؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، ط٢ ١٩٨٧ م.

- الرسائل، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٣، ط١ ١٩٨٣.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد بن إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط٢ ١٩٩٦.
- الحميدي (أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله ، ت ٤٨٨ هـ)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الابياري، نشر دار الكتاب المصري بالقاهرة ودار الكتاب اللبناني ببيروت، ط٣ ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- الحميري (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، ت ق ٩هـ/١٥م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط ٢ ١٩٨٠.
- ابن حوقل(أبو القاسم محمد بن على النصيبى، ت٣٨٠هـ/٩٩٠م)، صورة الأرض، طبعة ليدن، ١٨٧٢.
- ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيدالله القيسى، ت ٥٢٩ هـ/١١٣٤م)، قلائد العقيان، قدم له ووضع فهارسه محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، سلسة"من تراثنا الاسلامي"، رقم(١).
- ابن الخطيب (لسان الدين محمد السليمانى، ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق يوسف على طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ٢٠٠٣.
- ابن خلدون (ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمى، ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، تاريخ ابن خلدون المعروف بالعبر، دار القلم بيروت ، ط٥، ١٩٨٤.
- ابن خلدون، المقدمة ، تحقيق عبد السلام الشدادي، نشر المركز الوطني للبحث العلمي، الدار البيضاء، ط١ ٢٠٠٥.
- ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس احمد ، ت ٦٨١ هـ/١٢٨٢م)، ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٩٤م.
- الداودي (أبو جعفر احمد بن نصر، ت ٤٠٢ هـ/١٠١١م)، كتاب الأموال، تحقيق رضا شحاده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ٢٠٠٨م.

- الدباغ (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الانصارى، ت ٦٩٦ هـ/١٢٩٦ م)، معالم الأيمان في معرفة اهل القيروان، تحقيق، إبراهيم شبوح وآخرين، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٦٨.
- الدرعي (محمد بن موسى بن محمد بن محمد، ت١١٥٨هـ/١٧٤٥م) الدرر المرصعة في أخبار أعيان درعة، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ١٦١٠ تاريخ.
- الدمشقي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب، ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، ١٩٢٣م.
- ابن أبى دينار (أبو عبدالله محمد، ت١١١٠هـ/١٦٩٨م) ، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، تحقيق محمد شمام المكتبة العتيقة، تونس، ط٣ ١٣٨٧هـ.
- الذهبى (شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان ، ت ٧٤٨هـ/، ١٣٧٤ م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق، شعيب الارناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩ ١٤١٣هـ.
- الذهبي، المعين في طبقات المحدثين، تحقيق همام عبد الرحيم سعيد، دار الفرقان، عمان، الأردن، ١٤٠٤هـ.
- الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- الذهبى ، العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت ، ط٢ ١٩٨٤.
- الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت، ط١ ١٩٩٨م.
- الرجراجي (أبو الحسن علي بن سعيد، كان حيا أوائل القرن السابع الهجري/١٣م)، مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح المدونة وحل مشكلاتها، تحقيق أبو الفضل الدمياطي، نشر مركز التراث الثقافي المغربي بالدار البيضاء، ودار ابن حزم ببيروت، ط١ ، ٢٠٠٧م.
- ابن رشد (أبو الوليد محمد بن احمد بن رشد، ت ٥٢٠ هـ/١١٢٦م)، الفتاوى، تحقيق المختار بن طاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧.

- ابـن رشـيق (حسـن بـن رشـيق، ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، أنمـوذج الزمـان فـي شـعراء القيـروان، جمـع وتحقيـق محمـد العروسـى المطـوى وبشـير البكـوش، دار الغـرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١.
- الرعيني (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن، المعروف بالحطاب (ت ٩٥٤ هـ/١٥٤٧م)، مواهب الجليل لشرح مختصر الخليل، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
- ابن أبى زرع (أبو حسن بن عبد الله الفاسى، ت ٧٢٠ هـ/ ١٣٢٠م)، الأنيس المطرب بـروض القرطـاس فـي أخبـار ملـوك المغـرب وتـاريخ مدينـة فـاس، ط. دار المنصـور للطباعة والنشر، الرباط ١٩٧٣.
- السبكي (أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام ، ت٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمد محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.
- السـكونى (أبـي علـي عمـر بـن محمـد بـن حمـد بـن خليـل السـكوني الاشـبيلي ، ت٧١٧هـ/١٣١٧م)، عيـون المنـاظرات، تحقيـق سـعد غـراب، منشـورات الجامعـة التونسية، تونس، ١٩٧٦.
- الشـاطبى (أبـو محمـد ، عبـد الله بـن علـي بـن أحمـد بـن علـي ، اللخمـي الأندلسـي، ت٥٣٢هـ/١١٣٨م)، فتـاوى الإمـام الشـاطبى، حققهـا وقـدم لهـا محمـد أبـو الاجفـان، الوردية، تونس، ط٢ ١٩٨٥. ١
- الشـراط (أبـو عبـد الله محمـد بـن عيشـون، ت ١١٠٩هـ/١٦٠٠م)، الـروض العطـر الأنفـاس بأخبـار الصـالحين مـن أهـل فـاس، تحقيـق زهـراء النظـام ، منشـورات كليـة الآداب ، ط١ ، الرباط ١٩٩٧.
- ابن الشماع (أبو العباس أحمد الشماع الهنتاتي، ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، مطالع التمام ونصائح الأنام ومنجاة الخواص والعوام في القول بإباحة إغرام ذوي الجنايات والإجرام زيادة على ما شرع الله من الحدود والأحكام، تحقيق عبد الخالق احمدون، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ٢٠٠٣م.

- الشوشاوي (أبو علي حسين بن علي بن طلحة، ت ٨٩٩ هـ/١٤٩٣م)، الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة، تحقيق إدريس عزوزي، نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الرباط، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- الصفاقسي (أبو الثناء محمود بن سعيد بن مقديش، ت١٢٢٨هـ)، نزهة النظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزاوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط١ ١٩٨٨م.
- الصفدى (صلاح الدين خليل بن ايبك، ت ٧٦٤هـ /١٣٦٢م)، الوافى بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركى مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م.
- الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري بالقاهرة، ودار الكتاب اللبناني ببيروت، ط١ ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، ت ٤٦٣هـ /١٠٧٠م)، القصد والأمم في التعريف بأصول انساب العرب والعجم، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبى الأشبال الزهيرى، دار الحرمين للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
- ابن عبد الملك (أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، ت ٧٠٣هـ/١٣٠٣م)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، (د.ت).
- ابن عذارى (أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشى ت٧١٢ هـ/١٣١٣ م)، كتاب البيان المغرب في أخبار المغرب، ج١، تحقيق ج.س كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة ، بيروت، د.ت، ج٣، تحقيق ج.س كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة ، بيروت، د.ت، ج٤، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٣ ١٩٨٢م.
- ابن عساكر (على بن الحسن بن هبة الله الدمشقي، ت ٥٧١هـ/١١٧٦م)، تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي حسن الأشعري، مطبعة التوفيق، دمشق، ١٣٤٧هـ.
- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين العمرى، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.

- ابن عطية المحاربي (الحافظ القاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب، ت ٥٤٦ هـ/١١٥١م)، الفهرس، تحقيق محمد أبو الأجفان و محمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط٢ ١٩٨٢،
- ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، ت ١٠٨٩ هـ/١٧٠١ م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- عياض (القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتى، ت ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبط وتصحيح محمد صالح هاشم، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.
- عياض، الغنية (فهرست شيوخ القاضي عياض)، تحقيق ماهر زهير جراد، دار الغرب الإسلامي، ط١ ٢٠٠٢.
- عياض، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تقديم محمد بنشريفة، دار الغرب الإسلامي، ط ٢ ، ١٩٧٩م.
- الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد، ت٥٠٥هـ/١١١١م)، إحياء علوم الدين، تقديم وتعليق بدوى طبانة، مكتبة ومطبعة"كرياطة فوترا"، سماراغ، اندونيسيا، د.ت.
- ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن فرحون المالكي، ت ٧٩٤/١٣٩١م)، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- ابن فرحون، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٠١هـ.
- ابن القاضى (أبو العباس احمد بن محمد المكناسى، ت ١٠٢٥هـ/١٦١٦م)جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ط.دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣.
- القرافى (أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس شهاب الدين الصنهاجي القرافي، ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، نشر ومراجعة عزت العطار، القاهرة ، ١٩٣٨.
- القرافي، الذخيرة، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤.

- ابن قنفد (أبو العباس أحمد بن الخطيب القسنطينى ت٨٠٩هـ، ١٤٠٦م)، انس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وادولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٥.
- ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، ت٧٥١هـ/١٣٥٠م)، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، نشره، بهيج غزاوى، بيروت، دار إحياء العلوم، (د.ت).
- الماوردى (على بن محمد بن حبيب، ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م)، الماوردي، قوانين الوزارة وسياسة الملك، تحقيق رضوان السيد، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٩م.
- الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق محيي الدين هلال السرحان، دار النهضة العربية، ١٩٨١ م، بيروت.
- مجهول، جامع تواريخ فاس، مطبعة برنارد ويزى، بالرم ١٨٧٨.
- مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء ١٩٧٩.
- مجهول، مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية، دار أبى رقراق للطباعة والنشر الرباط، ٢٠٠٥.
- أبو المحاسن (جمال الدين يوسف الاتابكى بن تغرى بردى، ت ٨٧٤ هـ/١٤٧٠ م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، د.ت.
- المراكشى (عبد الواحد، ت ق٦هـ /١٢م)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط١ ١٣٦٨هـ.
- المقدسى (أبو عبد الله محمد بن احمد المعروف بالبشارى، ت حوالى ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م)، المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣ ١٩٩١.
- المقرى (شهاب الدين احمد بن محمد التلمسانى، ت ١٠٤١ هـ/١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١ ١٩٩٧.

- المقريـزى (تقـى الـدين احمـد بـن علـى بـن عبـد القـادر، ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م)، المقريزى، السلوك لمعرفة دولة الملوك، تحقيق عبدالقادر عطا، ، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤١٨هـ.
- المـواق (أبـي عبـد الله محمـد بـن يوسـف ابـن المـواق العبـدري الغرنـاطي، ت ٨٩٧هـ/١٤٩٢م)، التاج والإكليل لمختصر خليل، دار الكتب العلمية، ط١ ١٩٩٤م.
- الناصـرى(احمـد بـن خالـد السـلاوي الناصـري، ت ١٣١٩ هـ/١٩٠١م)، الاستقصـا لاخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط١ ١٩٩٧م.
- النباهي (أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن محمد ابن الحسن الجذامي النباهي المالقي الأندلسي، ت ٧٩٢هـ/١٣٩٠م)، تاريخ قضاة الأندلس، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط٥ ١٩٨٣م.
- النفراوى (أحمد بن غانم (أو غنيم) بن سالم ابن مهنا، شهاب الدين النفراوي الأزهري المالكي ، ت١١٢٦هـ/١٧١٤م)، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، تحقيق رضا فرحات، مكتبة الثقافة الدينية(د.ت).
- الونشريسي (أبو العباس احمد بن يحيى، ت ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م)، ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب، تحقيق مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ط.دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م.
- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى ، ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م)، معجم البلدان، ط.دار صادر، بيروت، د.ت.
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١ ١٩٩٣.

ب- **المراجع العربية والمعربة**

- إبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب وموقف العلماء منها، دار قرطبة للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ٢٠٠٦.
- إبـراهيم القـادري بوتشـيش، تـاريخ الغـرب الإسـلامي-قـراءات جديـدة فـي بعـض قضـايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٤م.
- احمد الريسونى، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبى، دار الكلمة ، المنصورة، ١٩٩٧.

- روجيه إدريس، الدولة الصنهاجية(تاريخ افريقية في عهد بني زيري)، نقله الى العربية حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م.
- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، منشاة المعارف، الإسكندرية، د.ت، ج٤.
- سعيد بنسعيد العلوي، الخطاب الأشعري؛ مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي، دار المنتخب العربي، بيروت ١٩٨١.
- عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام، العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م.
- عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢ ١٩٨٢.
- عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخي المغرب، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٧م.
- عبدالله المرابط الترغي، فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، نشر كلية الآداب بجامعة عبد المالك السعدي بتطوان، ٢٠٠٠م.
- عبد المجيد الصغير، الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام، قراءة في نشأة علم الأصول ومقاصد الشريعة، دار المنتخب العربي، ١٩٩٤م.
- علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦.
- محمد عثمان المراكشي، الأول من الجامعة اليوسفية بمراكش في تسعمائة سنة، الرباط، ١٩٣٧.
- محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج٣(طور الازدهار)، مؤسسة الانتشار العربي، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- نصر عارف، في مصادر التراث السياسي الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٤م.
- وفاء محمد علي، الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ١٩٩٠م.
- يوسف احنانة، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الرباط، ٢٠٠٣م.

ج- المقالات العربية

- احمد حمدان العلمى، "دور فاس في التنظير لعقيدة المغاربة"، مقال منشور في كتاب فاس في تاريخ المغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ٢٠٠٩ ، ص١٦٧-٢٦٠.
- عبد القادر زمامة، "أبو عمران الغفجومي أول مفكر في تأسيس دولة المرابطين"، مقال منشور بمجلة البينة، (المغرب)، ع٣ ، ١٩٦٢هـ، ص٦٥-٧٢.
- عبدالله كنون، " أبو عمران الفاسي"، مجلة الثقافة المغربية، عدد١، ١٩٧٠ م، ص٤٩-٦٠.
- عبد العزيز بن عبد الله، "الفهرسة والكناشة في نشاط المغرب الفكري"، مجلة التاريخ العربي، العدد ٧، ١٩٩٨م ، ص ١٢٣-١٥٤.
- على أومليل، "السلطة السياسية والسلطة العلمية، الغزالى، ابن تومرت، ابن رشد"، ضمن ندوة، أبو حامد الغزالي، دراسات في فكره وعصره وتأثيره، كلية الآداب، الرباط، ١٩٨٨.
- محمد الفاسي، "أبو عمران الفاسي والعلاقات العلمية بين المغرب وتونس"، مجلة المناهل، (المغرب)، ع١٧، ١٩٨٠م ، ص ١٥١-١٥٧.
- محمد الفاسي، " عبدالله بن ياسين وانتشار الإسلام بإفريقيا"، المجلة الإسلامية، ع ١٢، ١٩٨٢م.
- محمود إسماعيل، "المالكية والشيعة بأفريقيا إبان قيام الدولة الفاطمية."، المجلة التاريخية المصرية (القاهرة)، مج ٢٣، ع ١، ص٧٣ - ١٠٥ .
- نجم الدين الهنتاتى، "الأحباس بافريقية وعلماء المالكية إلى منتصف القرن ٦هـ/١٢م" ، الكراسات التونسية، ع ١٧٤، الثلاثية الثالثة لسنة ١٩٩٦، ص ٧٩-١٢١.

د- المراجع الأجنبية

- CHAUREBIERE(C.) ، Histoire du Maroc, Paris,1931.
- Cuoq (J.), Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'Ouest, des origines à la fin du XVIe siècle,paris,1984.
- Idris (H.), «l'aube du Malikisme Ifriqiyen», Studia Islamica, t.33, 1971, pp.19-40.
- Mones (H.), "Le role des hommes de religion dans l'histoire de l'Espagne musulmane jusqu à la fin du califat." , Studia Islamica,t.20, 1964, pp.47-88.

- Norris (T.), "New Evidence on the Life of 'Abdullāh B. Yāsīn and the Origins of the Almoravid Movement", Journal of African History, t.12,1971, pp.255-268.
- Terrasse(H.), Histoire du Maroc ،t. I, Casablanca, 1949.